د. نوري جعفر

أدب قصص الخيال العلمي وعالم الأطفال

أدب قصص الخيال العلمي وعالم الأطفال

تأليف

د. نوري جعفر

أدب قصص الخيال العلمي وعالم الأطفال
د. نوري جعفر
الطبعة الثانية ١٩٨٧

الناشر: دار الثقافة الاطفال
العراق – بغداد
ص . ب ٨٠٤١

سلسلة دراسات تصدر عن قسم البحوث والنشر في
دار ثقافة الاطفال
المدير العام رئيس مجلس الأدارة: فاروق سلوم
سكرتير تحرير السلسلة فاروق يوسف

أدب
قصص الخيال العلمي
وعالم الأطفال

كلمة تمهيدية

اثارت اهتمامي - اثناء انهماكي بدراسة الابداع او الابتكار في مجال العلم والادب منذ عام ١٩٦٢ - ظاهرة «ادب قَصص - بفتح القاف - الخيال العلمي» بصورة عرضية وان كانت متواصلة فطفقت ابحث في هذه الظاهرة الجديدة المثيرة العلمية الادبية في آن واحد. فتجمعت لدي نتيجة قراءاتي الكثيرة - العرضية احيانا - معلومات كثيرة دونتها في كتاب صغير عنوانه «ادب قصص الخيال العلمي» قدمت مسوداته لدار ثقافة الاطفال تم نشره عام ١٩٨٤ بعنوان جديد - وغريب ايضا - «الخيال العلمي في ادب الاطفال» .

ونظرا للتقدم المذهل الذي حصل في هذا الفرع الجديد من فروع المعرفة العلمية والادبية المعاصرة (ادب قصص الخيال العلمي) فقد أرتأيت ان أعيد النظر في الكتاب الصغير الذي نشرته دار ثقافة الاطفال اعادة جزء ية وان اضيف اليه ما استجد من الأمور طوال السنتين الماضيتين - وهو كثير ومهم - وان اعيد سبكه وتنضيره وترتيبه واوجهه بالدرجة الاولى والاهم للمشرفين على تربية الاطفال عندنا في دار ثقافة الاطفال ووسائل الاعلام الأخر وفي المدرسة والاسرة آملا ان يكون دليلا لهم عند تعاملهم مع الاطفال الذين تتراوح اعمارهم مابين السنة الحادية عشرة والخامسة عشرة في الاعم الاغلب حيث تبدأ القدرات الابداعية بالتبلور الامر الذي يستلزم تهيئة الظروف الملائمة لاستثمارها وتوجيهها على أفضل وجه. ولعله ايضا يسد فراغا في مكتبة الطفل وفي المكتبة العربية بصورة عامة.

وربما عدت الى استصلاحه حين يقتضيني الأمر ذلك. وهو محاولة اولى لتحرير هذا الموضوع تمهد الى محاولات ارجو ان تكون اعمق واوفى»

بغداد في ١٩٨٦/١١/١

نوري جعفر

الفصل الأول
أدب قصص الخيال العلمي

تقابل كلمة «قصص» – بفتح القاف – باللغة العربية كلمة «fiction» باللغة الانكليزية «وهي اللغة التي اشتقيتها منها محتوى هذا الكتاب (لكوني لا اجيد غيرها من اللغات الأجنبية). والمصطلح الأنكليزي هذا قريب المعنى من وجوه متعددة وفي الاصل التاريخي – كما يعرف ذلك اصحاب الاختصاص – من مصطلح «رواية» novel من ناحية ظاهرة الخيال المشتركة بينهما ومن حيث الابتعاد

عن الواقع المحسوس. مع العلم ان الجانب الخيالي المشترك هذا من الممكن ان يتحول الى واقع محسوس في المستقبل المنظور او البعيد: كله او بعضه وذلك لان مايتخيله الانسان الاعتيادي «او يتصوره» كأنه مستحيل الحدوث في مجرى الحياة اليومية المعتادة قد لايكون كذلك بالضرورة – وفي كثير من الاحيان – بالنسبة للعالم الفذ او الاديب اللامع ذي الخيال الخصيب او المجنح وذلك لان خبرة الشخص الاعتيادي – حتى وان كان متعلما – محدودة المدى كما ان نظرته الى المستقبل قصيرة المدى ايضا بحكم خبرته المحدودة التي لا يستطيع ان يتخطاها. بعكس العالم الفذ والأديب البارز الواسع الخيال الذي لايعرف السدود او القيود ومع ذلك – وربما بسببه – فهناك فروق كبيرة وكثيرة بين معنى كل من المصطلحين المشار اليهما وبخاصة في استعمالهما في الوقت الحاضر. مع العلم ان المصطلح الثاني اخذ معناه بالانتشار والتبلور والاستقرار في الادب الانكليزي على مانعلم منذ القرن الثامن عشر وبدأ المعنيون بالادب الانكليزي يستخدمونه لتحقيق اغراض شتى: تهذيبية «اخلاقية» وسياسية ودينية . ومايجري مجراها.

«من الجهة الثانية فان المرء يجد علاقة لغويةتاريخية

بين مصطلح قصص fiction ومصطلح آخر شائع باللغة الانكليزية romance «قصص غرامية» على نسق العلاقة بين معنى المصطلحين المشار اليهما (قصص: ficton رواية: novel): وان كان مصطلح romonce يحمل معنى المغامرات الغرامية العنيفة (الغريبة: النادرة) التي تمارسها شخصيات خيالية في الاعم الاغلب. ولكن الرابطة بين المصطلحين تكمن - بنظرنا - في كون الحوادث المروية في كل منها خيالية محض (او مبالغ فيها الى درجة الأعجاز): اسطورية. والجانب الخيالي (الأسطوري: الخرافي) غير المعقول احيانا يربط مصطلح «قصص» ficton بمصطلحات اخرى قريبة المعنى منه وان اختلف موضوعها عن موضعه منها - على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر-:

قصص خرافية fairy tales «خرافة» myth «اسطورة» legemd او fable. ومع ذلك فان الطابع المميز لكتابنا هذا هو كون محتوى الخيال القصصي - الذي هو جوهره - نابعا في الاصل من العلم بهذا الشكل او ذاك والى هذه الدرجة او تلك «ومرتبطا به ارتباطا عضويا» او عارضا بنظر اصحاب الاختصاص في جميع الاحوال كما سنرى بعد قليل.

اما الظواهر الاخرى التي تشير اليها المصطلحات الاخرى المار ذكرها فليست بذات صلة بالعلم من قريب او بعيد: العلم النظري او منجزاته التكنولوجية التي يتخذها المختصون في ادب قصص الخيال العلمي ادوات او وسائل للانتقال خياليا في إرجاء الرهب الواسع الأرجاء لان محتوى المصطلحات الاخرى يقع بعد التحليل الدقيق في صميمَ تاريخ علم الاجناس البشرية وعلم الأجتماع التاريخي. ومع ذلك فان القصص في الحالتين (قصص الخيال العلمي والقصص الخيالية الاخرى) تشترك في صفة عامة هي انها اسطورية او وهمية متخيلة محبوكة او منسوجة بمعنى انها ليست حقيقية او تاريخية او واقعية وان كانت – كما ذكرنا – ممكنة الحدوث وقابلة للتعدين في حالة قصص الخيال العلمي بالدرجة الاولى والأهم لكون محتواها، لقد اوضحنا اوجه الشبه واوجه الاختلاف بين «قصص الخيال العلمي» fiction وبين مصطلحات ادبية اخرى كثيرة مماثلة. ونود الان ان نشير الى ان مصطلح «fiction» باللغة الانكليزية له دلالة اخرى لاعلاقة لها بقصص الخيال العلمي من قريب او بعيد وهي معروفة لدى المشرعين والمختصين بالقانون.

يطلق بعض المعنيين بدراسة ادب قصص الخيال

العلمي اسم «ادب الاحلام» هذه التسمية بنظرنا مع انها تحسس جانبا خاصا من ادب قصص الاطفال من ناحية كونه يستند الى الخيال (ويكون بعيدا عن الواقع المحسوس بعبارة اخرى) الا انها لاتفي بحقه ولاتشمل جوانبه الاساسية التي ينفرد بها . كما ان بعضه بعيداً عن الاحلام بمعناها المتداول المعروف. وهذا واضح في رواية H.g. wells «حرب العوالم».

يضاف الى ذلك: حقيقة كون الانسان المعاصر بصورة خاصة تواجهه امكانياتُ غير متوقعة وبعضها لم يسبق لها مثيل في التاريخ. ومن الجهة الثانية ان ادب قصص الخيال العلمي يفتح امام الانسان الحديث آفاقا جديدة ومطامح واسعة نحو التقدم في اقتحام المجهول. وهذا هو الذي يتناوله – من حيث الاساس، ادب قصص الخيال الحديث. ومع هذا فأن الذي ذكرناه لايستنزف مطلقا جميع القضايا الكبرى التي يعالجها ادب قصص الخيال العلمي في الوقت الراهن وذلك لان كل عمل ادبي اصيل ينطوي على جوانب متعددة وابعاد كثيرة ومن هذه الزاوية فان ادب قصص الخيال العلمي يتناول ايضا – وبخاصة في السنوات القليلة الماضية كما سنرى بعد قليل قضايا اجتماعية كثيرة اخرى تتصل

بعلاقات الناس وبالأمور الأخلاقية وبمركز المرأة في المجتمع وقضايا كثيرة من هذا القبيل. مع اختلافات كبيرة وكثيرة بين ادباء قصص الخيال العلمي فيما يتصل بعمق تناولهم اياها وسعة ذلك التناول وفيما يتعلق ايضا بمنطلقاتهم الايديولوجية ومواقفهم الخاصة من قضايا المجتمع العلمي والانساني الكبرى الآنية والملحة.

تعرض ادب قصص الخيال العلمي لعملية تطورية منذ نشوئه.في هذا شأن جميع مظاهر المجتمع والفكر. واخذت في الوقت نفسه أهميته، فتعاظم بمرور الزمن وذلك بتعدد ميادينه: التكنولوجية والاجتماعية والسايكولوجية والايديولوجية ولتباين المختصين به من علماء فيزيائيين وفي الرياضيات ومن ادباء وشعراء بارزين منتشرين في الدول المتقدمة بصورة خاصة. ولعل ميدانه الأكثر تبلورا في الوقت الحاضر هو ان يتناول قضايا عالمية ملحة وبالغة الأهمية باسلوبه الخيالي القصصي الأخذ وبميله الجامح نحو تحقيق مايبدو مستحيلا في الوقت الحاضر لعوامل ايديولوجية وسياسية كبيرة وكثيرة من جهة ولكون بعض مايتصـــوره ادباء قصص الخيال العلمي بانه ممكن التحقيق يقع في مجال الخيال العابث phamtasy الذي مربنا ذكره.

يحتل ادب قصص الخيال العلمي منزلة اجتماعية مرموقة في المجتمع المتقدم الحديث لدى علماء الطبيعة وبخاصة الرياضيات والفيزياء ولدي الادباء وعلماء النفس البارزين. وقد تطور ادب قصص الخيال العلمي تطورا مذهلا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) وتعددت موضوعاته وتشعبت اغراضه وانتقل من الادباء ذوي النزعة العلمية في الاصل الى علماء الرياضيات والفيزياء بالاضافة بالطبع الأدباء الذين انغمروا فيه منذ البداية. كل ذلك ارى - في آخر المطاف - (ومازال يؤدي وسيبقى كذلك على ما نظن) الى اتساع نطاق ادب قصص الخيال العلمي اتساعا مذهلا من الناحية الكمية والناحية النوعية ومن ناحية المختصين به وهذا هو الذي يفسر لنا - من بين امور كثيرة اخرى - انتشار هذا النمط من الأدب في الوقت الحاضر انتشارا كبيرا (ادب قصص الخيال العلمي) في الأقطار المتقدمة بالذات على اختلاف انظمتها السياسية والاقتصادية وبخاصة في الولايات المتحدة وبريطانية وفرنسة وفي الاتحاد السوفيتي. ويرتبط ادب قصص الخيال العلمي في الاقطار المشار الى اسمائها باسماء طائفة كبيرة ومرموقة من الأدباء البارزين وعلماء الفيزياء والرياضيات والفلك

المشهورين الذين نال بعضهم جائزة نوبل في موضوع تخصصه العلمي. هذا بالاضافة بالطبع ببعض الهواة الذين لم يبلغوا شأنا كبيرا في العلم المحض ولا في الادب الخالص أيدهم «بمنزلة بين المنزلتين» بتعبير اصحاب مذهب الاعتزال.

وبالنظر لانتشار ادب قصص الخيال العلمي هذا الانتشار فقد عقدت - قبل بضع سنوات - ندوة علمية طريفة ساهم فيها علماء بارزون في الرياضيات العالية وفي العلوم النظرية لاسيما الفيزياء وعلوم الفضاء. كما ساهم ايضاً بعض رواد الفضاء وادباء قصص الخيال العلمي.

وكان عنوانها «في مفترق الطرق بين الأجرام السماوية». معنى هذا بعبارة اخرى ان موضوع الندوة الممتعة قد اقتصر على جانب واحد فقط من جوانب ادب قصص الخيال العلمي: وهو اقدمها واكثرها اثارة: جانب التحليق في الفضاء الكوني - في عالم مجهول رهيب ومخيف. ومع ان العالم المحيط بالارض كان ومازال وسيبقى الموضوع الخصب والأكثر اثارة في ادب قصص الخيال العلمي إلا ان معالجة قضايا اجتماعية كبيرة وكثيرة تتعلق بالانسان المعاصر من النواحي الأخلاقية والسايكولوجية اخذت في السنوات القليلة الماضية تحتل

المركز الاول والاهم في ادب قصص الخيال العلمي وتمد التحليق بين الكواكب بمادة اجتماعية ذات محتوى يهم جميع الناس.

ومن الطريف ان نشير - في هذه المناسبة - الى ان احدى الجهات الأهلية المعنية بدراسة ادب الخيال العلمي اجرت قبل بضع سنوات استفتاء وزعته على فئة من رواد ادب الخيال العلمي يتضمن الاسئلة التالية ويطلب الاجابة عنها:

اولا: ما الذي حبذ لك - في بداية الامر - الأهتمام بأدب قصص الخيال العلمي؟

وما الفائدة التي كنت تتوقع ان تجنيها من هذا الأدب؟ وهل تحقق ذلك بالفعل؟

ثانيا: هل لاحظت اثناء عملك في هذا النمط من انماط الأدب فروقاً بين العاملين فيه من مختلف الاقطار؟ واذا كان الامر كذلك فما هي تلك الفروق؟

ثالثا: ماهو - بنظرك - دور ادب قصص الخيال العلمي في عالم اليوم؟

اتفقت اجابات الذين وجهت اليهم أسئلة الاستفسار - المار ذكرها - على القول بان اهتمام كل منهم بأدب قصص الخيال العلمي بدأ منذ فترة الشباب

وبتأثير ما وقع في متناوله من ادب قصص الخيال العلمي الذي نشره الكاتب البريطاني H. G. wells وبخاصة:

1: The time machine

2: The war of the world

وما نشره الكاتب الفرنسي Jules Naire وبخاصة Eighty thousand leagues under the sea الموجهة في الاساس الى الأطفال.

يشترك ادب قصص الخيال العلمي مع الادب القصصي العام وبخاصة الخيالي منه في كونه يسعى نحو تحقيق مايتعذر تحقيقه بالفعل من جهة وفي كونه يتعامل مع ما هو غير موجود من الناحية الواقعية تعاملا يستند الى الخيال. ولكن هذا النمط من الادب العلمي الجديد او العلمي الادبي الجديد ينفرد في كونه يخضع الخيال الادبي لمنطق العلم او يخضع منطق العلم للخيال الأدبي. ومع ذلك – وربما بسببه – فأن ادب قصص الخيال العلمي (من ناحية التنبؤ العلمي) لايعبر عنه عن طريق الرموز والمعادلات الرياضية – كما هي الحال في العلم المحض – بل عن طريق الصور الذهنية الحسية الزاهية التي تتصف بالاناقة وبالجمال الفني. ومن هذه الزاوية يمكننا ان نشير هنا الى ان ادب قصص الخيال العلمى يتصف بالدرجة

الاولى والاهم بكونه نمطا منظما تنظيما علميا من انماط الخيال العلمي. معنى هذا بتعبير اخر ان ادب قصص الخيال العلمي.

– بخلاف انماط الادب الأخرى – يستبقي طابعه العلمي مع كونه ايضا – في الوقت نفسه – يتصف بالطابع الادبي الذي يعبر عن نفسه بالاناقة والجمال وسعة الأفق الاجتماعي وفي تقصيه العلاقة بين الفرد والمجتمع الامثل لتحقيق ذلك بالفعل في المستقبل المنظور وهي امور لامكان لها في العلم المحض.

يتضح اذن ان ادب قصص الخيال العلمي يتصف – في جانبه الادبي بالذات بكونه بعد التحليل الدقيق ومن بعض النواحي فرعا من فروع الادب الخيالي (الرومانتيكي) وان منزلته – في الوقت الحاضر بالذات – تحددها في الاساس صفته الفنية الجمالية. ومع ذلك فهناك جوانب معينة خاصة بهذا النمط من الأدب لابد من ان يأخذها المرء بعين الأعتبار دائما وأبداً وبخاصة في هذا العصر الذي نعيش فيه بتقدمه العلمي النظري والتكنولوجي المذهل الذي يستلزم النظر إلى الأدب الجديد هذا نظرة خاصة ذات طابع علمي ملحوظ.

ومن هذه الزاوية فان ادب قصص الخيال العلمي هو

- بعد التحليل الدقيق - من ناحية جانبه الأدبي - ادب واقعي في الاصل من حيث المنطلق ومن ناحية الغاية القصوى التي يسعى الى تحقيقها من الناحية العلمية والواقعية في المدى البعيد على كل حال. والغاية القصوى هذه هي - في هذه المرحلة التاريخية بالذات - مازالت ذات طبيعة رومانتيكية وان كانت مشربة بالعلم: مزدانة: مطرزة. وهذا بنظرنا هو جوهر ادب قصص الخيال العلمي كما سلف ان ذكرنا. وهذا هو الذي يميزه عن الادب الواقعي الصرف وعن الادب الرومانتيكي الصرف في وصفها للحاضر وفي نشئتها الاولى المتبلورة طوال القرنين الماضيين من جهة وبربطه بكل منها في آن واحد من جهة اخرى: وهو الذي يربطه ايضا بأوثق الروابط بالعلم النظري والتكنولوجي في بعض الوجوه ويعزله عنه في وجوه اخرى.

يتناول ادب قصص الخيال العلمي موضوعات كثيرة ومتنوعة جدا رغم ان بعض الباحثين ينظرون الى قصص ادب الخيال العلمي بعين غير العين التي ينظرون بها الى نمط الادب التقليدي الشائع الذي تعود جذوره في الاصل الى الماضي السحيق. وبخاصة فيما يتصل بمعالجة قضايا اجتماعية كبرى. كما ان بعضهم يتساءل.

- وهو على صواب في بعض الوجوه - عن الدور الخاص الذي يؤديه ادب قصص الخيال العلمي في عالم اليوم باعتبار أن هذا النمط الجديد من الادب المطرز بالعلم النمط الوحيد من الادب الذي يطلق الخيال لصاحبه على اوسع مدى ليس على نطاق الارض وحدها وانما ايضا على نطاق الكون الذي لايعرف القيود او السدود في الزمان والمكان.

ويتساءل بعض اخر - وهو بحق من بعض الوجوه ايضا - عن موقف ادب قصص الخيال العلمي من الصراع الايديولوجي في العالم الحديث وعن موقفه ايضا من المشاكل الدولية الكبرى السياسية والاقتصادية ومن اسلحة الدمار الشامل النووية والكيمياوية والبكتريولوجية التي وضعها العلم النظري ومنجزاته التكنولوجية بيد الانسان المعاصر. وهم يتساءلون ايضا عن الأثار الاجتماعية القريبة والبعيدة على الصعيدين المحلي والعالمي على حد سواء ويقولون ؛ الى اين يتجه الجنس البشري بهذه السرعة المذهلة؟ وما علاقة الانسان بالألة التي صنعها؟ ولماذا ارتاد الانسان الفضاء الكوني؟ ومايجري هذا المجرى من الاستفسارات الى تحمل طابعا فلسفيا. ونظرة فاحصة عميقة ذات مسؤولية اجتماعية

ملحوظة تتعلق بالعلم النظري ذاته وبمنجزاته التكنولوجية وبالادب ايضا. اما نوع الأجوبة المعطاة عن الاستفسارات المشار اليها وما يجري مجراها - وهو كثير - فانه يتوقف بنظرنا بالدرجة الأولى والاهم على فلسفة المجيب ومنطلقاته الايديولوجية سواء اكان هذا المجيب مختصا بادب قصص الخيال العلمي أم من المهتمين بقضايا المجتمع المعاصر. ومع ذلك فأنه لما كان الاتجاه العام للمختصين بادب الخيال العلمي الأفذاذ منهم بصورة خاصة (بمعنى الذين تحرروا من الولاءات او الانتماءات الضيقة ومن العقبات السائدة)فهم يسعون بشكل ملحوظ ومباشر نحو تحقيق مبدأ العدالة الاجتماعية بين البشر على اختلاف مللهم ومناطقهم الجغرافية ويقاومون بضراوة فكرية لاهوادة فيها الظلم والاضطهاد والتعصب بمختلف الاشكال والدرجات. ويشتركون جميعا - بدرجات متفاوتة الارتفاع - بنظرتهم المتماثلة الى ادب قصص الخيال العلمي باعتباره نمطا جديدا وفريدا من الادب المحض والعلم الصرف.

كما ويشتركون ايضا في نظرتهم الى الكون نظرة جديدة ذات جوانب جمالية ملحوظة. ومن الجهة الثانية فان الأختلافات الكبيرة والكثيرة بين «رواد» ادب

قصص الخيال العلمي – من وجهة نظر كل منهم باجماع الأراء – ظواهر طبيعية ومتوقعة ومفيدة ايضا مردها في الاصل الى اختلاف المجتمعات التي ترعرعوا فيها من حيث واقعها ومن الناحية التاريخية. وان لادب قصص الخيال العلمي دورا بارزا يؤديه – بنظرهم – في خدمة المجتمع وفي تقدم الأدب والعلم على حد سواء.

وان هذا النمط الجديد من انماط الادب الخيالي يسمح لخيال (العلمي والأدبي) بالتغلغل في عالم رهيب ومجهول بعيد المدى وعميق الغور من الناحيتين المكانية والزمانية الممتدة من الماضي السحيق الى المستقبل الابهر ومن الكون المؤلف من مئات المجرات وما وراء المجرات التي لايمكن ادراكها بالادوات التكنولوجية المتقدمة الحديثة المستمدة من ابحاث الفضاء . وهذه كله – بالطبع – يستعصي ادراكه باستيعاب على كثير من قراء ادب قصص الخيال العلمي وبخاصة الذين يفتقرون الى اساس علمي متين ومعرفة ادبية واسعة في الادب الرومانتيكي وبلغة المجاز لاسيما التورية والاستعارة: وهي قضايا عريقة بالنسبة لذوي النزعة العلمية وبخاصة المهتمون منهم بالرياضيات والعلوم الطبيعية النظرية.

ومع ذلك فان محتوى قصص الخيال العلمي او

مضمونها يبقى ملتصقا بمعطيات العلوم الطبيعية النظرية والتكنولوجية المعاصرة لاسيما الفيزياء وعلم الفلك والرياضيات من ناحية ومستندا في جذوره العميقة – بشكل او بآخر – من هذا التقدم المذهل الذي حصل في علوم الفضاء بالذات من ناحية ثانية وبالخيال المترف المرتبط بالفن لاسيما الشعر من ناحية ثالثة. والخيال المشار اليه المرتبط بقصص الخيال العلمي بالذات يشمل جانبيه الذي ميز بينهما علم النفس: الجانب (الممكن تحقيقه بشكل او بأخر والى هذه الدرجة او تلك : imagention) والجانب الهائم: السارح: العابث : phantasy. ومن هذه الزاوية فأن كثيرا من توقعات مشاهير كتاب قصص الخيال العلمي – بمن فيهم علماء الفيزياء – كثيرا ما تدخل ضمن الخيال العابث المار ذكره.

يبدو – بعد التحليل الدقيق – ان هناك جوانب مشتركة بين ادب قصص الخيال العلمي في الدول الغربية وفي الدول الأشتراكية على حد سواء. كما ان هناك ايضا جوانب خاصة متميزة ذات صيغة محلية ترتبط – بشكل أو بأخر – بتقاليد كل مجتمع وبثقافته العامة وبنظامه السياسي والاقتصادي وهذا يعني – بعبارة اخرى، – وجود اختلافات كبيرة وكثيرة بين ادب قصص الخيال

العلمي في المجتمعين المتنافرين سياسيا ومن الناحية الاقتصادية وفي مجال الفكر - ومن عوامل هذا الاختلاف ايضا اختلاف نمطي الادب الواقعي في كل منهما: الواقعية النقدية والواقعية الحديثة في الغرب من ناحية والواقعية الاشتراكية في الجانب الاخر. وهذا يعني ان جذور الاختلافات بينهما لم تكن ناجمة عن الجانب العلمي في ادب قصص الخيال العلمي بل من جانبه الادبي.

معنى هذا - بعبارة اشمل - ان العلم النظري ومنجزاته التكنولوجية تنطلق لدى الجانبين من اساس مشترك: ولهذا فانه ليس من المعقول او المقبول او الممكن وجود رياضيات اوفيزياء منها رأسمالية واخرى اشتراكية. كما انه ايضا ليس من الممكن او المعقول او المقبول وجود تكنولوجيا اشتراكية واخرى رأسمالية لصنع سفن الفضاء الكوني او الطائرات او القاطرات.

ومن هذه الزاوية نجد مثلا ان «ابطال» ادب قصص الخيال العلمي في الغرب تتصف بتجسيد اهمية حرية الفرد والعدالة الاجتماعية في إطار المجتمع الغربي مع اظهار او ابراز جوانبه السلبية والاشادة بجوانبه الايجابية مع مقت النزعة الاستعلائية والعدوانية. ومن الجهة الثانية

فانه يبدو ان خيال المختصين بادب قصص الخيال العلمي الغربي – لاسيما في الولايات المتحدة – اخصب بكثير واكثر اناقة من خيال المختصين بادب قصص الخيال العلمي في الدول الاشتراكية. وهناك ايضا اختلاف وهناك اختلاف ملحوظ آخر بين المختصين بأدب قصص الخيال العلمي في المجتمع الاشتراكي وبين زملائهم في الغرب ان الغربيين منهم متهيبون من المستقبل وينظرون اليه نظرة تشاؤم محفوف بالرعب بالنسبة لمستقبل الانسان على سطح الارض. في حين ان زملاءهم في المجتمع الاشتراكي يذهبون الى الجهة المعاكسة. ويتوقعون المستقبل الافضل والاكثر تقدما للنوع الانساني. وعندي ان الاغراق في التشاؤم لامسوغ له وان كان التحذير من مخاطر الحرب وعدم الثقة بين الدول امر مرغوب فيه بنظرنا . كما ان التفاؤل الجامح قد لايخلو من المخاطر على مانظن.. والشيء المعقول والمقبول على مانرى هو الثقة بالمستقبل الافضل مع التحذير من العقبات او العراقيل التي تحول دون تحقيقه على افضل وجه.

ومن هذه الزاوية فان ادب قصص الخيال العلمي في المجتمعين المتنافرين متكاملة من حيث الاساس: يبعدنا جانب منها عن الاغراق في التفاؤل ويجنبنا الجانب الاخر

الاغراق في التشاؤم. ومع ذلك ان الجوانب السلبية تحفز الانسان على اتخاذ الاجراءات الايجابية الفعالة لاستئصالها في المدى البعيد ولدعم كل ما هو ايجابي وتطويره وتوسيع مداه ويقينا من الاستسلام للقنوط واستخدام جميع الوسائل المتاحة لتحقيق ذلك على افضل وجه.

وهذا كله بالطبع لايمكن ان يحصل – في المستقبل البعيد – على وجهه الاتم الا اذا سادت المجتمع الانساني على الصعيدين المحلي والدولي نزعة انسانية صادقة واصبحت جزءا لايتجزأ من مقومات الفرد الثقافية وعلى صعيد تصرفاته او اعماله اليومية المعتادة.

ادب قصص الخيال العلمي نمط جديد من انماط الادب الخيالي الذي بدأت جذوره في الوقت الذي بدأت فيه جذور العلم الحديث منذ بداية القرن السابع عشر ثم اخذت معالمه الكبرى بالتبلور والاستقرار في هذا القرن الذي نعيش فيه. وادب قصص الخيال العلمي يتعامل مع «ماهو غير موجود بالفعل» او « ماهو خارج نطاق الادراك الحسي» ويجنح نحو تحقيقه ذلك عبر الخيال (التطلع : التوقع): شأنه في هذا شأن صنوف الادب الخيالي الأخر. وله – بالاضافة الى ذلك او على اساسه –

جوانب متعددة مترابطة ومتبادلة الأثر من ناحية المحتوى: سايكولوجية: اخلاقية تهذيبية: ثقافية: ايديولوجية: سياسية تتعلق بروابط الانسان المتعددة بالطبيعة والمجتمع، ولكنه – في الوقت نفسه. يميل الى الاستعانة بالعلم (النظري والتكنولوجي) ويستخدم الخيال العلمي لتحقيق اغراضه. وهذا هو الجانب الذي ينفرد فيه دون سائر انماط الادب الخيالي الأخر. وهذا يعني – بعبارة اخرى – ان ادب قصص الخيال العلمي ينطلق في الاصل من الخيال (الادبي – الشعري – والعلمي على حد سواء). ولهذا نجد في ادب قصص الخيال العلمي كل شيئ «ممكن» الحدوث مهما كان بيعدا عن الواقع المحسوس ويتعذر الحصول عليه بالمقاييس العلمية الراهنة: وهويتعامل كما ذكرنا على ماهو غير موجود بالفعل كأنه موجود او حقيقي او قابل للتحقيق من الناحية الواقعية. وهذه صفته التي ينفرد بها التي تميزه عن كل من الادب والعلم من جهة وتربطه بهما من جهة اخرى: فهو يخضع الخيال الادبي الجامح لمنطق التنبؤ العلمي المبني على التوقع. ومع ذلك – وربما بسببه – فان هذا التوقع او التنبؤ في مجال ادب قصص الخيال العلمي لا يستند الى معطيات الرياضيات المعبر عنها بالرموز والمعدلات بل عبر الصور الحسية

البصرية الادبية: artistic images. وهذا هو الذي يجعله في «منزلة بين المنزلتين» على حد تعبير علماء المعتزلة: فلا هو علم محض ولا ادب خالص: فهو يختلف عنهما ويرتبط بهما في آنٍ واحد بعلاقة ديالكتيكية. وهذا هو الذي يحببه الى جمهرة القراء ويجعل المختصين به علماء طبيعيين بارزين وأدباء كبار على حد سواء. كما انه ايضا يفتح امام المعنيين به من كبار المختصين ومن جمهرة القراء افاقا رحبة فكرية وعاطفية كبيرة وكثيرة يتعذر الالمام بها وتحديد مداها.

لقد نظرت غالبية الادباء والعلماء المختصين بادب قصص الخيال العلمي - حتى عهد قريب - الى هذا الادب نظرة خاصة باعتبار انه نمط جديد وغريب عن كل من العلم والادب على حد سواء. اي ان ادب قصص الخيال العلمي - بنظرهم - ليس علما بالمعنى المألوف لفقدانه بعض ميادين العلم المحض من جهة وليس هو ادبا - بالمعنى المتعارف عليه - لافتقاره الى بعض مقومات الادب الصرف. وقد انتشرت هذه النظرة - غير الدقيقة - انتشارا كبيرا لدى الاوساط الادبية بالدرجة الاولى والأهم: ذات النزعة الواقعية في الغرب وفي الدول الاشتراكية على حد سواء ؛ الواقعية النقدية او

الواقعية الحديثة في الغرب والواقعية الاشتراكية او الاشتراكية الواقعية في الدول الاشتراكية). وحجتهم في ذلك – وهي واهية بعد التحليل الدقيق – ان ادب قصص الخيال العلمي يتناول امورا مضحكة وغريبة يتعذر تصديقها احيانا وهي مفعمة بالغلو او الاغراق بالمجاز وبالرمزية. ان هذه النضرة – على مانرى – مبالغ فيها ولايعنينا امر الدخول في تماصيلها وذكر مالها وماعليها بل نكتفي بمجرد الاشارة اليها والتنبيه إلى أنها اخذت بالانحسار والتراجع منذ سبعينات هذا القرن.

غير ان انحسارها هذا لايتضمن بأية حال من الاحوال انها لم تكن نزعة انسانية بالغة الأهمية في حياة المجتمع الحديث او ان وجودها «المنحسر» في الوقت الحاضر يشير – ولو من طرف خفي وبصورة غير مباشرة إنها تعرقل النزعة الجديدة السائدة في ادب قصص الخيال العلمي: التي هي – بعد التحليل الدقيق – وليدتها الفنية المترعرعة التي نشأت في احضانها وتجاوزت بفعل حركة تطور المجتمع والفكر الصاعدة المتدفقة.

يتصف ادب قصص الخيال العلمي – ولانقول ينفرد – بصفتين متميزتين ومتلاحمتين هما: – من ناحية المحتوى او المضمون –: الجانب السلبي (الضمني احيانا)

الذي يتناول - بشكل غير مباشر احيانا.- الجوانب السلبية الشائعة في المجتمع الحديث من جهة والجانب الايجابي المتمثل في المجتمع البديل (الخيالي) الامثل الذي يجسد ادب قصص الخيال العلمي نواحيه الانسانية الايجابية من وجهة نظره. كما يتصف ادب قصص الخيال العلمي بصفتين اخريين من ناحية الأسلوب هما: الوصف الموضوعي الواقعي للاحداث (مع المبالغات الادبية المعروفة الموشاة بالمجاز لاسيما الكناية والثورية) والجانب الرومانتيكي (الخيالي الجمالي) ايضا في آن واحد. وهذا يعني - بعبارة اخرى - ان ادب قصص الخيال العلمي (بشكله الحديث على كل حال منذ ستينات هذا القرن: «الموجة الجديدة» بتعبير المعنيين بدراسة نشوئه وتطوره) يستمد محتواه الاجتماعي من الواقع الاجتماعي المحسوس على الصعيدين المحلي والعالمي بنظر الاديب المعني بكتابة قصص الخيال العلمي. وهذا هو جوهره. ولكن الواقع هذا - بنظر اصحاب ادب قصص الخيال العلمي لاسيما الرواد - ليس جامدا او خامدا (كما هي الحال في الادب الواقعي الصرف الذي مرت الاشارة اليه عند جارلس دكنز مثلا وآخرين من طرازه) بل هو واقع ديناميكي صاعد متطور بصورة عديمة الانقطاع. وهو يمر - اثناء

حركته الصاعدة ابدا الى الاعلى والامام – بمراحل ثلاث، متتابعة ومتبادلة الأثر وهي: الماضي – الذي أصبح حاضرا) والحاضر (الذي سيكون مستقبلا) والمستقبل (الذي كان حاضرا) منظوراً الى ذلك كله من الناحية الفنية الجمالية ومعبرا عنه بالاناقة الفنية الجمالية. ومن هذه الزاوية . فان الرومانتيكية (الديناميكية) هي جزء لايتجزأ من الواقعية في ادب قصص الخيال العلمي.

كل هذا يشير الى ان الصور الادبية الخيالية الرشيقة التي نجدها في ادب قصص الخيال العلمي ذي المحتوى الاجتماعي – الاكثر انتشارا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية – تعبر تعبيرا ادبيا (شعريا) انيقا عن العالم المحيط بالانسان بشكله الابعد عنه – في الوقت نفسه – من الناحيتين المكانية والزمانية: اي ان هذا النمط الجديد من الادب العلمي او العلم الادبي ليس هو في جوهره تعبيرا فوتوغرافيا او نسخاً طبق الاصل (كليشية) او انعكاسا Reblecliou ذهنيا للعالم المحيط (بالتعبير الفلسفي).

وهذا يعني – بعبارة اخرى – ان محتوى الصور الذهنية الفنية الخيالية – في هذا الطراز الجديد من الادب العلمي او العلم الادبي – وان كان مستمدا في الاصل من العالم المحسوس المحيط بالاديب المعني الا انه بعيد عنه في

الزمان والمكان ومختلف عنه في طبيعته اختلافا جذريا وحاسما بفعل كون الاديب المعني يؤلف - بخياله المجنح - بين عناصره المتباعدة في الزمان والمكان (ويضيف اليها من عنده ايضا) ويعبر عنها - بوحدتها هذه - تعبيرا انيقا. اي ان هذا النمط الجديد من الادب الخيالي مطرز بالناحية الرومانتيكية وهذا هو الذي يجعل صاحبه سابقا لزمانه من ناحية تصوره الذهني للمستقبل الافضل (الذي هو - في جوهره - ممكن التحقيق بمعالمه الكبرى لانه ليس طوبائيا بالمعنى الشائع المألوف وليس ميتافيزيقياً من الناحية الفلسفية). بل هو الحاضر الماثل للعيان تتجسد فيه (بصورة ضمنية غير مباشرة) الجوانب الايجابية الراهنة في حركتها الصاعدة المتطورة ابدا الى الاعلى والامام من جهة وتنتقي فيه الجوانب السلبية (الصارخة بالدرجة الاولى والاهم). التي تعرقل مسيرته الظافرة. فالمستقبل الذي يطمح نحو تحقيقه ادب قصص الخيال العلمي - الاصيل بالطبع - هو في جوهره من هذه الزاوية حاضر منتقى ومؤجل يكمن في رحم الحاضر الراهن وقديما قيل:

والليالي من الزمان حُبالى

مثقلات يلدن كل عجيب

وهذا هو الذي يميز ادب قصص الخيال العلمي ذي المحتوى الاجتماعي في الجوهر عن الادب الواقعي المحض الذي مرت الاشارة اليه: لان هذا الاخير يتركز على وصف ماهو موجود بالفعل (سلبيا او ايجابيا وان كان مبالغا فيه احيانا) بشكله الجامد (استاتيكي) من جهة ويعتبر المستقبل (الافضل بنظر اصحابه) - ولوضمينا بالاقل - بانه عالم آخر جديد قائم في حد ذاته مازال معلقا في الهواء ينقصه الوجود المادي المحسوس. وهو ايضا - من هذه الناحية جامد (ستاتيكي).

يتضح اذن ان ادب قصص الخيال العلمي يتصف بالرومانتيكية التي هي الخيال من حيث الاساس والخيال - في جوهره - من الناحية السايكولوجية هو الجانب اللاواقعي (غير المحسوس وغير الموجود بالفعل خارج نطاق ذهن الاديب المعني) في حياة الانسان غير العقلية وغير الانفعالية وان كانت عناصره او مقوماته مستمدة في الاصل - بهذا الشكل او ذاك والى هذه الدرجة او تلك - من الواقع المحسوس في الزمان والمكان. معنى هذا ان الخيال يعبر عن نفسه في عملية التأليف والجمع - غير المألوف - بين اشياء وظواهر محسوسة متباعدة في الزمان والمكان لغرض اظهارها باشكال جديدة - غير مألوفة -

من حيث علاقاتها ببعضها في الزمان والمكان على مايضيفه الأديب المعني عليها من خياله المجنح. والخيال المشار اليه يظهر - كما هو معروف - في جميع نواحي المعرفة (العلمية والادبية بصورة خاصة) بدرجات متفاوتة البعد عن الواقع المحسوس. وكلما ابتعد الخيال عن الواقع المحسوس كان أرقى. وهذا هو الذي يميز كتاب ادب قصص الخيال العلمي عن زملائهم الادباء والاخرين من جهة ويميز «رواد» ادب قصص الخيال العلمي على سواهم من المشتغلين فيه. وما يصدق على الجانب الأدبي هذا في ادب قصص الخيال العلمي يصدق ايضا على الجانب العلمي فيه. وهؤلاء جميعا لاينظرون - كما ينظر غيرهم من الأدباء والعلماء - الى الماضي والحاضر والمستقبل نظرة ميتافيزيقية جامدة تغفل الروابط العضوية التي تشد الحاضر بالماضي من جهة وتربط كلا منهما بالمستقبل من جهة اخرى.

يتضح مما ذكرنا ان الحياة في حركتها الدائبة المتدفقة الصاعدة ابدا إلى الاعلى والامام على الصعيد البايولوجي والاجتماعي هي ظاهرة واحدة. وان الحاضر ليس هو نتاج الماضي بل هو الحياة في حركتها الصاعدة اذ تترك الماضي وراءها. وان المستقبل ليس هو نتاج الحاضر بل هو

الحاضر الممتد في حركته الصاعدة: المتدفقة ابدا الى الاعلى والامام. فهناك اذن علاقة ديالكتيكية - بشير هيكل - بين أزمنة الحياة ؛ الماضي والحاضر والمستقبل.

ادب قصص الخيال العلمي يوجد بين معطيات العلم الحديث النظرية ويستخدم منجزاته التكنولوجية للسفر البعيد في هذا الكون الرهيب المترامي الاطراف في الزمان والمكان من جهة وبين معطيات الادب الخيالي اي ان ادب قصص الخيال العلمي هو - في جوهره - علم مضمخ بالخيال الادبي الفضفاض الذي يتناول باسلوب فني جمالي مترف قضايا اجتماعية محلية وعالمية ذات اهمية كبيرة تتعلق بالكون والمجتمع والانسان من جهة وهو ادب مطرز بمعطيات العلم النظرية والتكنولوجية الذي يعبر عنها هذا التقدم المذهل الذي نشاهد آثاره في جمع فروع المعرفة الحديثة من جهة اخرى.

يشير ماذكرناه الى ان ادب قصص الخيال العلمي يجمع او يوحد بين الادب الخيالي بالدرجة الاولى والاهم الذي له قوانينه الخاصة الفنية الجمالية التي تربطه بالفن الرفيع لاسيما الشعر من ناحية وبين العلم النظري الذي قوانينه الموضوعة المعروفة لاسيما الفيزياء وعلم الفلك والرياضيات من ناحية ثانية وبين الخيال العلمي الادبي

الذي له هو ايضا قوانينه الخاصة المستمدة في الاصل من علم النفس. ومن هذه الزاوية يمكن ان يقال: ان ادب قصص الخيال العلمي تدخل - كما بينا قبل قليل - في باب الادب المحض من بعض الوجوه وتدخل أيضاً في مجال العلم الصرف من وجوه أخر. كما ان ادب قصص الخيال العلمي لكونه في الوقت نفسه يستند في الاصل الى الخيال النقي فانه ايضا يمس علم النفس في الصميم من ناحية القوانين السايكولوجية التي تتحكم في الخيال من حيث كونه ظاهرة سايكولوجية ملحوظة ومألوفة وطريفة في الوقت نفسه. وهذا هو الذي يجعل في الاساس الادباء وعلماء الطبيعة وعلماء النفس معنيين جميعا به كل من زاويته الخاصة ومساهمين ايضا في انتاجه بهذا الشكل او ذاك. ومن الملاحظ ان كتاب ادب قصص الخيال العلمي كثيرا ما يجمع الواحد منهم الجوانب الثلاثة المشار اليها: كأن يكون عالما في الفيزياء او الرياضيات او علم الفلك وأديباً بارزا وله المام واسع بعلم النفس. والأسماء اللامعة التي ذكرناها في دراستنا هذه تؤيد وجاهة ماذهبنا اليه.

ومن الجهة الثانية تجد عموم الناس - وفي مقدمتهم المتعلمون من مختلف الاختصاصات - يبدون اهتماما ملحوظا بادب قصص الخيال العلمي من حيث محتواها

الاجتماعي (الاخلاقي) والخيالي (العلمي والادبي) والسايكولوجي والايديولوجي.

وعلى هذا الاساس نجد ادب قصص الخيال العلمي يؤدي دورا بارزا في المجتمع الحديث لجميع فئات الناس على اختلاف مشاربهم ومستوياتهم الثقافية والايديولوجية.

لقد مر بنا القول إن ادب قصص الخيال العلمي يجمع او يوحد بين العلم والفن (بما فيه الادب: الذي هو فن الكلمة): وهما - كما يبدو لاول وهلة - على طرفي نقيض من حيث المحتوى (الحقائق العلمية والحقائق الأدبية الفنية) ومن ناحية الاسلوب المتبع للوصول الى تلك الحقائق ومن ناحية القوانين (العلمية والادبية الفنية) والمبادئ النظرية العامة. كما مر بنا القول ايضا ان المشتغلين بادب قصص الخيال العلمي هم أدباء من نمط خاص وعلماء من نمط معين ايضا: او انهم - بعبارة اخرى - ادباء ذوو نزعة علمية وخيال علمي من جهة وعلماء ذوو نزعة ادبية وخيال علمي من جهة اخرى. وتلك هي صفتهم الاساس والنزعة العامة المشتركة بينهم جميعا.

ونود الان ان نتحدث باقصى حد من الايجاز والتركيز عن العلاقة بين العلم المحض والادب الصرف (او الفن عموما). وقبل ان نفعل ذلك يجمل بنا ان نشير الى ان الشخص المتعلم الحديث بصرف النظر عن اختصاصه ومهنته ومستواه الثقافي يحتاج الى الالمام بالملامح الكبرى لكل من العلم والادب على حد سواء حتى وان لم يكن ملما بادب قصص الخيال العلمي الماما كافيا . فالعلم الطبيعي النظري- بما فيه الرياضيات- والتكنولوجي من جهة والادب بصورة خاصة (والفن على وجه العموم) طرفا ثقافة واحدة مشتركة: ولاافضلية لاحدهما على الاخر بنظرنا . وهما كالعين والأذن بالنسبة لانسان. ولابد ان تكون لهما منزلة متماثلة في مناهج التعليم في جميع مراحل الدراسة : وذلك لان حاجة الجيل الجديد الى التزود بالمعرفة العلمية النظرية والتكنولوجية الحديثة لاتقل ضرورة والحاحا عن حاجة المجتمع نفسع للمعرفة العلمية نفسها لضمان بقائه وتقدمه الحضاري. ومع ذلك - وربما بسببه - فان حاجة الجيل الجديد الى التزود بالادب والفن ضرورة ملحة ايضا. هذا يعني - بعبارة اخرى - ان الاهتمام بالعلوم الطبيعية النظرية والتكنولوجية ينبغي ان لايغض من منزلة الأدب والفن لاهميتهما معاً في حياة

الفرد والمجتمع على حد سواء أو ان يجعل مكانة الادب والفن ثانوية الاهمية بالموازنة بمنزلة العلم. وذلك لان العلم والادب - كما ذكرنا - طرفا ثقافة اجتماعية مشتركة . عندئذ لاينعزل العلم الذي هو اساس تقدم الحضارة المادية على الادب الذي هو سجل مشاعر الانسان الرقيقة ازاء الطبيعة والمجتمع والمجال الوحيد الذي يكشف عن مواطن الاناقة والجمال في الكون والمجتمع والانسان. بل يكمل احدهما الاخر ويثريه ويرفعه الى مستوى اعلى. يضاف الى ذلك ان الادب - اذا احسن اسلوب تدريسه وتم انتقاء مواده على اسس فنية جمالية وبكفاية فانه يصبح المجال الثقافي الاكثر ملاءمة لتكوين شخصية الفرد المتعددة الجوانب وصقل مشاعره ازاء الطبيعة والناس الاخرين. وهنا تتفتح الرابطة العضوية (الديالكتيكية) بين العلم والادب. والرابطة العضوية هذه تأخذ بنظرنا شكلين مختلفين مع ترابطهما: يبدو الاول منهما في اسلوب البحث ونمط الفكر المشبع في كل منهما وفي محتواه او مضمونه وفي حقائقه الموضوعية. ويتجلى الاخر في كون العلم النظري والتكنولوجي دون اناس بمشاعر ادبية مرهفة يستثمرونها لخير الانسان قد لايكون في صالح المجتمع وربما لايؤدي الى تقدمه في المدى البعيد.

ومن الجهة الثانية: فان اصحاب المشاعر الادبية الرقيقة عاجزون عن المساهمة الايجابية الفعالة في تقدم المجتمع دون استعانة بالعلم النظري ومنجزاته التكنولوجية لأن مشاعرهم الفضفاضة تبقى في اطار الاماني الطيبة والاحلام اللذيذة فكلاهما اذن ضروري لتقدم المجتمع. هذا بمعطياته النظرية ونمط تفكيره. وذاك باناقته وصقله مشاعر الناس وتحفيزهم او استنهاض هممهم للعمل المخلص الجاد. يضاف الى ذلك ان كلا من العلم والادب اداة ثقافية فعالة لتصوير قدرات الفرد العقلية لاسيما الفكر والتذاكر والخيال.

ومن طريف مايروى عن آينشتين (١٨٧٠ – ١٩٥٥) في هذا الصدد انه قال: «لقد تعلمت من الاديب الروسي دستويفزكي ١٨٢٢ – ١٨٨١ في مجال الرياضيات اكثر مما تعلمته من نيوتن ١٦٤٢ – ١٧٢٧ ومن كوس (١٧٧١ – ١٨٥٥) عالم الرياضيات الالماني الفذ». وفي هذا القول الذي يبدو غريباً لأول وهلة ومبالغاً تلميح ضمني لموقع الخيال الادبي في الفكر الرياضي وهذا هو الذي راود ذهن آينشتين على مايبدو عندما اشار في احدى لمحاته العبقرية الى ان الفكر العلمي ينطوي دائما على عنصر شعري. كما انه ذكر ايضا في

احدى المناسبات: ان موسيقى باخ ١٦٨٥ - ١٧٥٠ تذكره دائما بالمنطق الرياضي. وعالم فيزيائي فذ اخر هو نيل بور ١٨٨٥ - ١٩٦٢ تطرق ايضا الى العلاقة بين العلم والفن - لاسيما الموسيقي - من حيث القدرة على التحليق بالفكر العلمي النظري الى مستوى الاعلى من الاناقة والانسجام ومن ناحية جعل الخيال العلمي النظري يسبح في ارجاء رحيبة ورهيبة من الكون الممتد الى مالا نهاية يتعذر تحديد مداها او تحليل الكثير منها تحليلاً علمياً.

هناك اذن علاقة عضوية واثر متبادل بين العلوم الطبيعية النظرية والتكنولوجية من جهة وبين•الادب (المنظوم والمنشور) من جهة اخرى كما ان بينهما فروقا جوهرية واضحة قد تصل احيانا الى درجة التباين: فجوهر العلم او طابعه العام المشترك بين جميع فروعه المتعددة يتجلى في نزعته نحو ادراك الطبيعة (الجامدة والحية) ادراكا موضوعيا والتعبير عنها تعبيرا دقيقا وأميناً بعيدا عن المشاعر او الانفعالات الذاتية المتغلبة: في حين ان الادب مفعم بالجوانب الذاتية المتقلبة في حين ان الادب مفعم بالجوانب الشخصية الانفعالية من ناحية ادراك الطبيعة الحية والجامدة ومن ناحية التعبير عنها وبخاصة في مجال الشعر - الاصيل الذي سنتحدث عن

ملامحه الكبرى بعد قليل -. فمن هذه الناحية نجد العلم يغاير الادب، والعلم - من الجهة الثانية - يسير وفق معطيات نظرية وقوانين او مبادئ ثابتة ومستقرة لايجوز تخطيها او الخروج عليها - في هذه الحقبة التاريخية او تلك على كل حال -. اما الادب فيسير باتجاه آخر - وبخاصة الاصيل منه - فيتأثر من ناحية محتواه بحالات فردية سايكولوجية ذاتية خاصة يعيشها الاديب في هذه اللحظة او تلك. اي ان العالم ينظر الى الاشياء بعينه البايولوجية ويسمع اصواتها بأذنه البايولوجية ايضا - بينما يراها الفنان بعينه «الجمالية» ويسمع انغامها ولانقول اصواتها بأذنه «الفنية» المرهفة، وهذا يعني - بعبارة اخرى - ان المبادئ العلمية والنظريات والقوانين ظواهر موضوعية مسلم بصحتها - من الناحية النسبية بالاقل - أما نظائرها في الادب فانه وان وجدت قواعد موضوعية عامة الا ان الطابع الذاتي للأديب (الاصيل) يتخطاها في كثير من الاحيان. ومن الجهة الثانية فان لغة العلم دقيقة واضحة لاتحمل اكثر من تفسير واحد. في حين ان لغة الادب لغة فنية فضفاضة مترفة تتصف بالابهام او الغموض الناجم عن المجاز وبخاصة الاستعارة والكتابة. وهذا هو الذي يجعل القصيدة الشعرية تحمل اكثر من معنى وتحتوي على

اكثر من استنباط يعكس النظرية العلمية او المعادلة الرياضية. ولغة الشعر في العادة تخاطب المشاعر. اما لغة العلم فموجهة الى العقل دون سواه.

وفرق جوهري آخر بين العلم والادب هو ان النظريات العلمية كثيرا ما تصبح بالية ومغلوطة او ناقصة بفعل التقدم العلمي اللاحق واكتشاف حقائق علمية جديدة لايمكن تفسيرها تفسيرا علميا دقيقا في اطار النظريات العلمية الشائعة الامر الذي يستلزم تعديل تلك النظريات او بعضها.

وحتى الغائها او تحديد مجال عملها. اما الادب الاصيل - وبخاصة الشعر - فانه يسير باتجاه مختلف يتحدى الزمان والمكان. ولهذا نجد الادب القديم (الادب الكلاسيكي) يعيش جنبا الى جنب مع نظيره الجديد (او حفيده). وقد يفوقه في الروعة والجمال مع احتفاظه برونقه عبر الاجيال المتعاقبة.

وفرق جوهري آخر بين العلم والادب لاسيما الشعر هو ان هذا الاخير - كما ذكرنا - مفعم بالثورية والكتابة بعكس العلم الذي يفسده ذلك عند استخدامه اياه.

توصل فريق من الباحثين المعنيين بدراسة العلاقة بين العلم والأدب – عند الموازنة بينهما – الى استنباطات كثيرة – غير دقيقة بنظرنا – من ناحية تفسير طبيعة الانتاج العلمي والانتاج الادبي ومن حيث خصائص كل منهما . وهي كثيرة لايعنينا امرها هنا رغم اهميتها؛ أبرزها بنظرنا – واكثرها انتشارها قولهم مثلا: ان العلم ذو نتائج عملية تطبيقية تحصل أن عاجلا او اجلا بشكل مقصود احيانا وبصورة عرضية احيانا اخر. في حين ان الادب – وبخاصة الشعر – بنظرهم خلو من نتائج تطبيقية لاحقة او عارضة مستمدة من طبيعته . وهذا الرأي أدى – بشكله المتطرف – الى نشوء نظرية «الادب من اجل الادب». معنى هذا: ان للعلم اغراضا أخر تقع خارج اطاره النظري . بينما غرض الادب ذاتي جمالي كامن في طبيعته. وقد نجم عن هذا الرأي رد فعل متطرف اتضح في النزعة المسماة «التكسب» بالادب لاسيما الشعر : اي استخدامه اداة للحصول على الربح المادي كما حصل ذلك في المديح والهجاء في الشعر العربي مثلا بشكل ممجوج احيانا يمسخ الحقائق:

قال احد الشعراء:

مازُلزلتْ مصرُ من كيدٍ أَلَمّ بها
لكنها رقصتْ من عدلكم طربا

وقال المتنبي في مدح كافور:

تَفْضَحُ الشّمسَ كُلما ذَرّتِ الشمـ
ـسُ بشـــمسٍ مـــنيرةٍ سوداءِ

ان هذا الرأي وان كان معقولا ومقبولاً من بعض الوجوه وفي بعض الأحيان إلا انه بنظرنا ليس صحيحا على هذا الوجه من وجوه الاطلاق وذلك: لان العلم النظري – في ارفع مستوياته التجريدية البعيدة عن الواقع في الرياضيات مثلا يقترب من الادب لاسيما الشعر الانيق الى درجة الانصهار احيانا. كما ان الادب وبخاصة الشعر بدوره ليس منعزلاً انعزالاً تاماً ومطلقاً وفي جميع الاحوال عن الحياة الاجتماعية وعن تحفيز الانسان لمغالبة الطبيعة ومقاومة الظلم والاضطهاد من ناحية كونه – في اضعف الاحتمالات – عامل حفز وتنشيط للسيطرة على الطبيعة. واذا كان العلم يتيح للانسان الادوات التكنولوجية لمغالبة

الطبيعة فان الادب لاسيما الشعر يمده بالادوات السايكولوجية للكشف عن مواطن الجمال في الطبيعة والاستمتاع بها ومغالبتها ايضا.

واستنباط اخر ينحو هذا المنحى في الاساس يتضح مثلا بقولهم: ان العلم يعبر تعبيرا دقيقا وأميناً - موضوعيا - عن الطبيعة ويتعامل معها تعاملا موضوعيا بالرموز والمعادلات الرياضية. في حين أن الادب وبخاصة الشعر يتجه نحو الجهة المعاكسة. ويستند الى الصور الذهنية الحسية الخيالية الانيقة ذات الطابع الذاتي الخاص. يدرك الطبيعة على هذا النحو ويتعامل معها ايضا تعاملا انيقا ذاتيا عبر المجاز. وهذا القول مردود ايضا على هذا الوجه من وجوه الاطلاق ففي العلم والادب منطق ومشاعر اثناء فهم الطبيعة وعند التعبير عنها مع اختلاف نسبي بينهما نابع من طبيعة كل منهما.

وفي ضوء ماذكرنا نستطيع ان نقول: إن بين العلم والادب لاسيما الشعر روابط ايجابية وسلبية وبينهما اوجه شبه واوجه خلاف كبيرة وكثيرة. وهذه سنة الحياة والمجتمع والفكر. وان الانسان يحتاج اليهما معا. وكذلك المجتمع. فبقدر مايحتاج المجتمع الى معرفة «طبيعة» الشمس مثلا من الناحية العلمية لاستثمار طاقتها لمصلحته

فأنه ايضاً يحتاج الى معرفة «طبيعتها» من الناحية الادبية. مع العلم ان المعرفة العلمية بطبيعة الشمس ثابتة مستقرة ومسلم بها دون تحريف او اجتهاد في التفسير في هذه الفترة الزمنية من تاريخ العلم او تلك «وهو امر لا بد من مراعاته في جميع الاحوال) الا ان المعرفة الادبية بطبيعة الشمس متحولة ابدا وممتعة وذات نكهة ذاتية فردية لا يمكن المفاضلة بينها. والتدليل على رجاهة ماذهبنا اليه دعنا نوازن مثلا بين الحقائق العلمية التي تقدمها لنا في الوقت الحاضر علوم الفضاء عن الشمس وتلزمنا بمراعاتها وتحذرنا عن الخروج عليها و بين الصور الفنية الشعرية التي تتحدث عن طبيعة الشمس كل من ناحيتها و باناقتها وتدعون الى الاستمتاع بها قال رجل من بني الحارث بن كعب يصف الشمس:

مُخبأةٌ أما اذا الليلُ جَنّها
فتخض وأما بالنهارِ فتظهرُ

اذا انشقّ عنها ساطعُ الفجرِ فانجلي
دُجَى الليلِ وانجاب الحجابُ المستر

وألبسَ وجهَ الارض لوناً كأنّه
على ألافَقِ الشرقيّ ثوبٌ معصفر

تَجلّتْ وفيها حين يبدو شُعاعُها
ولم يَعْلُ للعين البصيرة منظر
عليها كَرَوْعِ الزعفرانِ يُشبّهُ
شُعاعَ تلألأ فهو ابيضُ أصفر
الى ان عَلتْ وابيضّ منها اصفرارُها
وجالت كما جال المُنيحُ المشهر[١]
وجبلّتِ الآفاقُ ضوءاً يُنيرها
بَحرٍ به وَجْهَ الضحَى تسعرّ[٢]
ترى الطلَّ يُطوى حين تعلو وتارةً
تراه اذا مالت عن الارض يُنْشَرَ
وقدْ نف حتى مايكاد شُعاعُها
يَبينُ وقد دَلتْ لمن يتّبصر
كما بدأت اذ اشرفت في مغيبها
تعود كما عاد الكبيرُ المُعمّر
فأفنتْ قروناً وهي في ذاك لم تزل
تموت وتحيا كلّ يومٍ وتُحشَرُ

(١) المُنيح: احد ثلاثة سهام او اقداح في الميسر لانصيب لواحد منها.
والاخران: الشفيح والوغد. اما السهام السبعة التي لها انصباء: فأولها الفذ. يليه التوءم. فالرقيب فالحس فالنافس ثم المعلى.

(٢): منتصب بالظرفية. وفاعل متسعر : الشمس.

وقال ابن الرومي يصف الشمس عند المغيب

وقد رنقت شمسُ الأصيلِ ونفضّتْ
على الأُفق الغربيّ وَرسا مزعزعا
وودعت الدنيا لتقضيَ نَحبَها
وشَولَ باقي عمرها فتشعشعا
ولاحظتِ النوارَ وهي مريضةٌ
وقد وَضَعَتْ خداً الى الأرض أضرعا
كما لاحظتْ عوّادِها عينُ مُدنفٍ
تَجرع من اوصابه ماتجرعا
وضلّت عيونُ الرّوض تخضِلُ بالندى
كما اغرورقت عينُ الشجيّ لتدمعا
باعينها حوراً اليها روانياً
ويَلحظنَ الحاظاً من الوجد خُشعا

وقال شاعر لبناني معاصر يصف الشمس:

أبِنْبتَ الصبحِ كم أرعَبْتِ قلبا
وكم أدهَشتِ في معناكِ لُباّ

اراكِ وانتِ سافرةُ المُحيا
سدلْتِ من الستاير عليك حُجبا
أمامك تُرسلينَ بياضَ شعرٍ
وخلفكِ تسحبينَ دجاهُ سحْبا
فأنتِ مع التبرجِ بنتُ خِدرٍ
وطالُعُكِ المبينُ هو المحنا
فلم تشّبُقِ للظلما هزيعاً
ولا لكواكبِ الجوزاءِ سيرْبا

لكل من هذه المقطوعات الشعرية الانيقة نكهته الخاصة به ، وكل منها يصف ظاهرة طبيعية واحدة بطريقته الخاصة ويكشف عن مواطن الجمال فيها. وبين كل منها فترة زمنية طويلة. ولاينفي ، جدها الذي جاء قبله. ونحن نحتاج اليها جميعا. كما نحتاج الى الحقائق العلمية المتعلقة بالشمس في الوقت الحاضر. ولكننا نحتاج الى حقائق «علمية» سابقة فات اوانها.

واذا نظرنا الى معطيات علوم الفضاء. لأدب قصص الخيال العلمي روابط تاريخية – غير مباشرة في الاعم الأغلب – بآراء بعض الفلاسفة القدامى والمصلحين الاجتماعيين ابتداء من افلاطون (في كتاب الجمهورية) والفارابي (في كتاب: آراء اهل المدينة الفاضلة)

واصحاب – الرسائل الطوبائية وهم كثيرون – في مقدمتهم روبرت أوين وتوماس مور .

ودانتي (الكوميديا الالهية) والمعري (في رسالة الغفران) والهمزاني والحريري (في المقامات). ولادب قصص الخيال العلمي صلة بقصص ابن المقفع (في كتاب كليلة ودمنة) وبقصص لافونتين التهذيبية ولكتاب الف ليلة وليلة. والصلة المشار اليها نابعة في الاصل على مانرى من الجانب الخيالي الذي يجمع بين ادب قصص الخيال العلمي وبين تلك الانماط المتعددة من الادب القصصي الذي لاصلة له بالعلم من قريب او بعيد والذي يتركز موضوعه او محتواه بالدرجة الاولى والاهم في تصوير نماذج او انماط من العلاقات الاجتماعية (المثلى: بنظرهم) المغايرة للواقع المحسوس (التعيس: بنظرهم) . مع العلم أن بعض تلك الانماط الادبية الاصلاحية يستخدم الرموز للتعبير عما يطمح نحو تحقيقه وشجب مساويء المجتمع الراهن: واقتراح البديل الامثل (كما فعل الهمزاني والحريري مثلا في المقامات). كما ان بعض الانماط الاصلاحية الأخر يضع مايبشر به من اصلاحات على السنة الحيوانات (كما فعل ابن المقفع ولافونتين). وبعض اخر يعترض بشكل لبق وبكياسة على بعض المباديء

الاجتماعية التي ينظر اليها الانسان الاعتيادي نظرة تقديس وولاء ليتفادى الوقوع في المآزق الحرجة كما فعل دانتي وابو العلاء المعري. وبعض اخر يتخيل نظاما اجتماعيا متكاملا بديلا للسائد كما فعل افلاطون في جمهوريته وكما فعل الفارابي في آراء اهل المدينة الفاضلة. وبعض يقتصر - في بعض الاحيان - على مجرد سرد قصص او وقائع خيالية متناثرة لايجمعها جامع كما هي الحال في كتاب الف ليلة وليلة. وهذا جميعا لايعنينا امرها هنا رغم اهميتها وطرافتها وكونها رائدة ومعقولة من بعض الوجوه في ضوء قرينتها التاريخية.

ولا بد من الاشارة هنا الى العلاقة الوطيدة الموجودة بين ادب قصص الخيال العلمي (من ناحية جوانبه الاجتماعية الاصلاحية) وبين الادب الواقعي الذي انتشر في الغرب بشكله المتبلور في اعقاب الثورة الصناعية في القرن السابع عشر في انكلترة بالذات مهد الثورة الصناعية: حيث كشف الادباء البارزون باساليبهم الادبية الطرفة وبشكل لايخلو من المبالغة عن تناقضات المجتمع آنذاك اثناء انتقاله من نظام الاقطاع الى المجتمع الرأسمالي الجديد الصاعد. ولعل جارلس دكنز - الاديب البريطاني المشهور - كان ابرزهم واكثرهم حراسة

وحماسة. فقد عرض هذا الاديب اللامع مختلف جوانب الحياة الاجتماعية البريطانية في عهده لاقسى انواع النقد الصارم والاستهزاء فوصف مثلا- بروعة ادبية فنية - اماكن العمل الرديئة والمياتم في روايته الذائعة الصيت («اولفر توست»). ولخص بحرارة وتهكم لاذع نظام التقييم السائد في روايته المعروفة «نيكولاس نيكاباي». وشرح ظاهرة الزواج وحياة الاسرة التي تبرم بها في روايته الممتعة «دمبي ونجله». واوضح فقدان العدالة الاجتماعية بين المواطنين في روايته المعروفة «اسرة بليك» واسهب في وصف جهاز القمع الحكومي واضطهاده الافكار الجريئة في روايته الطريفة «دوروث الصغير» ومن كتابات كثيرة اخر تحدث عن السجون الرهيبة وعن نظام المعامل وبخاصة في روايته المعروفة «اوقات عصيبة»

وقد سار على منواله ادباء بريطانيون معاصرون في مقدمتهم الديوس هكسلي في روايته الذائعة الصيث التي يعتبرها الكثيرون في صميم ادب قصص الخيال العلمي: «العالم الجديد الجرئ». وكذلك الاديب البريطاني المعاصر الاخر: سنو في روايته الممتعة «غرباء واحزان». حيث رسما معا كل بطريقته الخاصة، صور سايكولوجية عميقة ودقيقة في المجتمع البريطاني المعاصر

من جوانبها المتعددة وبفئاته الاجتماعية المتنافرة بمن فيهم المثقفون ورؤساء الجامعات واساتذتها وكبار موظفي الدولة المدنيون العسكريون والساسة ورؤساء الاحزاب السياسية والتجار وارباب العقارات في حياتهم العامة والخاصة في الاقوال والافعال. وقد تابع سنو كتاباته هذه فعبر في روايته المعروفة «الناس الجدد» عن مآسي القنبلة النووية في هيروشيما وناغازاكي.

وما يصدق على الديوس وهكسلي في بريطانية يصدق ايضاً على ادباء كثيرين غربيين بارزين وبخاصة الولايات المتحدة : همنكوي : في قصصه القصيرة «الرتل الخامس» و «ثلوج كليما نجارو» وفي رواياته المسهبة «المالكون والمحرومون» و «لمن يقرع الجرس» ولولا الاستطراد لذكرنا اسماء اخرين كثيرين من هذا الطراز في مختلف ارجاء العالم الغربي لاسيما المانية وفرنسا : توماس مان وأناتول فرانس وفي الولايات المتحدة ايضاً : جاك لندن . على ان الذي كتبه هؤلاء — على اهميته الاجتماعية — لايقع ضمن اطار قصص الخيال العلمي وان كان ذا علاقة (غير مباشرة به) من ناحية قصدية نقد الاوضاع الاجتماعية السائدة (جوانبها اللاانسانية : بتعبير ادق : مع المبالغات الادبية المعروفة . وربما كان ذلك

احد محفزات كتاب ادب قصص الخيال العلمي . ومن هذه الزاوية يمكننا ان نحدد المعالم الكبرى لادب قصص الخيال العلمي على النحو التالي : ادب قصص الخيال العلمي هو نمط منتظم تنظيماً علمياً من انماط الخيال الفني - الادبي - او انه - بتعبير اخر - شكل منتظم تنظيماً فنياً - ادبيا - من انماط الخيال العلمي : اي انه يصف - بعقلية علمية - وصفاً حسياً بصرياً فنياً مالا وجود له بالفعل من الناحية العلمية وان كان ممكن الحدوث بشكل او باخر في المجال العلمي الصرف . في المستقبل البعيد او المنظور بفعل عمل قوانين طبيعية او اجتماعية تحصل بجهود الانسان وهذا يعني - بعبارة اخرى - ان الصفة العلمية لادب قصص الخيال العلمي - تبدو على هيئة صور حسية بصرية فنية غريبة او غير مألوفة على نسق ظهورها في المجال العلمي الصرف برموز ومعادلات رياضية . وبامكانها ايضاً - من هذه الناحية ان تكشف - احياناً - عن حقائق مجهولة او قوانين فنية جمالية مجهولة تماماً كما تفعل الرياضيات عبر الرموز والمعادلات المجردة : كل ذلك يستند - في الحالتين - الى ظواهر سايكولوجية مشتركة تعبر عن نفسها في مجال ادب قصص الخيال العلمي تعبيراً حسياً عبر مايسميه علماء

النفس «الادراك الحسي»perception وفي مجال الرياضيات عبر مايطلق عليه علماء النفس اسم «الادراك الفعلي» comception ومن هذه الناحية فان ادب قصص الخيال العلمي يشبع حاجة سايكولوجية جوهرية لدى المجتمع بصورة عامة ولدى الفرد (المنتج والمتلقي) تتعلق بالادراك الحسي الفني للعالم المحيط بالانسان ادراكاً فنياً خيالياً يختلف عن الواقع المحسوس اختلافاً جذرياً ونوعياً ولكنه يرفعه الى مستوى اعلى من الاناقة والرشاقة يتضح اذن ان الجانب الاصيل المتميز لادب قصص الخيال العلمي هو المسؤول عن الصفة المعقدة لهذا النمط من الادب الخيالي من حيث كونه شكل من اشكال الفن الرفيع . وهذا هو الذي يؤدي بنظرنا الى نشوء تعاريف متضاربة لادب قصص الخيال العلمي ويجعل صفته الادبية الفنية المترفة موضع اخذ ورد لدى المعنيين بدراسة الادب ذاته . ومما يجعل هذا الموقف المعقد اكثر تعقيداً ان الكثيرين من المعنيين بدراسة ادب قصص الخيال العلمي من الادباء والنقاد لايأخذون بعين الاعتبار كون ادب قصص الخيال العلمي اسلوباً ادبياً جديداً يرتبط بالعلم من جهة وبالكتابات الأدبية الخيالية من جهة اخرى : وهو ماينبغي بتركيز الاهتمام فيه .

هناك انماط متعدد من ادب قصص الخيال العلمي من ناحية المحتوى الذي ينطوي عليه ومن ناحية الغرض الذي يرمي الى تحقيقه وان كان متعذراً ان نفصل فصلاً تاماً ومطلقاً بين محتوى ادب قصص الخيال العلمي وبين الغرض الذي يرمي الى تحقيقه وذلك لوجود التلازم بينهما مع كونهما - في الوقت نفسه - متميزين عن بعضهما بشكل ملحوظ بتغلب او طغيان هذا على ذاك احياناً وطغيان ذاك على هذا احياناً اخرى والانماط المشار اليها كثيرة تتعذر الاحاطة بها من ناحية التفاصيل والمميزات الثانوية . غير ان ملامحها الكبرى تجعل من الممكن النظر اليها في مجاميع مترابطة ومتلازمة ايضاً .

فمنها مثلاً النمط المرتبط بالاساطير والقصص الخرافية والنمط المرتبط بالقصص الرومانتيكية الخيالية ونمط ادب قصص الخيال العلمي التكنولوجي (السفر بين الكواكب والاجرام السماوية ومن الارض اليها والعودة الى الارض - خيالياً بالطبع) . ومنه ايضاً النمط الاجتماعي الفلسفي الاخلاقي .

والانماط المشار اليها متكاملة ومتبادلة الاثر بحيث يتعذر وضع حدود متميزة تفصل بينها . وهي جميعاً مستمدة في الاصل من الواقع الذي تنظر الى بديله

وتوحد – عبر الخيال – بين عناصر متباعدة جداً ومتباينة في الزمان والمكان بهيئات غير مألوفة . ومع ذلك فان الشيء الذي لايرقى اليه الشك هو ان ادب قصص الخيال العلمي هو في جوهره اداة لدراسة الواقع دراسة تفصيلية واقتراح البديل الامثل من الناحية الجمالية . وهذا يعني – بعبارة اخرى – ان ادب قصص الخيال العلمي بانماطه المتعددة اداة لرفع الواقع المحسوس عن طريق الخيال الى مستوى اعلى من الدقة والاناقة .

وادب قصص الخيال العلمي يوسع الافق ويفتح امام الانسان منافذ واسعة تجعل هذا الأدب بانماطه المتعددة دقيق الاتصال بالادب الرمانتيكي مع ارتفاعه فوقه من ناحية الاناقة والروعة والجمال . كما ان ادب قصص الخيال العلمي ينتفع من الجهة الثانية – كما بينا سابقاً ببعض معطيات العلم الحديث النظري والتكنلوجية ومن اسلوبه في التفكير ايضاً وبالخيال المشترك بين العلم والادب . وهذا واضح بشكل ملحوظ في الكلام اللاحق الذي مربه ادب قصص الخيال العلمي وبخاصة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) عندما بدات اتجاهاته العامة تنتقل من مهمة تبسيط العلم ومنجزاته التطبيقية الى معالجة قضايا اجتماعية اساسية

وملحة في حياة الانسان المعاصر في مجالات الحياة المتعددة التي ترتبط بالعلم نفسه بهذا الشكل او ذاك والى هذه الدرجة او تلك ومن ناحية معالجتها بشكل علمي ملحوظ . وهذا يعني - بعبارة اخرى - ان ادب قصص الخيال العلمي بالنظر لالتصاقه بالعلم النظري والتطبيقي وبالنظر ايضاً لمضامينه السايكولوجية والاجتماعية والايديولوجية اخذ يدمج التطلعات او الاماني الادبية الفنية الجمالية بالنظرة العلمية الى الاشياء في هذا العالم المتحرك ابداً الى الاعلى والى الامام في الزمان والمكان بصورة عديمة الانقطاع والالتصاق المشار اليه بين النظرة الفنية الجمالية والنظرة العلمية الى طبيعة الاشياء المادية وعلاقاتها وقوانينها يفتح امام ادب قصص الخيال العلمي افاقاً واسعة لايتسع لها العلم المحض ولا الادب الصرف كل على انفراد كما انه ايضاً يجعل المشتغلين بادب قصص الخيال العلمي يتخطون المهام التقليدية للأدب ويتصدون لبحث قضايا اجتماعية كبرى ملحة لاتمت الى الادب التقليدي في السابق الا عرضاً ونادراً . ومن الجهة الثانية فان الخيال الادبي - بشكله التقليدي المألوف يندمج بالخيال العلمي في ادب الخيال العلمي اندماجاً يبلغ درجة الانصهار فيرفع كل منهما صاحبه إلى درجة اعلى

من الاناقة والجمال .

ومع ذلك – وربما بسببه – فان الحكم على ضحجة ادب قصص الخيال العلمي ينبغي الايستند الى جانبه العلمي بقدر استناده الى ناحيته الادبية الجمالية . وذلك بكون الجانب العلمي لاينسجم بعض الاحيان مع معطيات العلم او منطقه في حين ان الجانب الادبي المترف يتالق فيه دائماً وابداً ويكسبه روعته التي تأخذ بمجامع مع النفوس – ومن الجهة الثانية فأن كثيراً من توقعات او أماني ادب قصص الخيال العلمي تبقى معلقة بالهواء دون تجسيد فعلي لانها بعد التحليل اكثر طموحاً من توقعات او اماني العلم :

ولانقول اكثر تقدماً من تنبؤات العلم . فالطموح الادبي – الخيالي هذا – ليس ناجماً – في ادب قصص الخيال العلمي – عن العلم النظري او منجزاته التكنولوجية بل من خيال الادباء او العلماء المشتغلين بادب قصص الخيال العلمي .

معنى هذا ان ظاهرة الطموح في ادب قصص الخيال العلمي ليست منبثقة من مجال العلم المحض (عن التنبؤ العلمي) بل هي – بعد التحليل الدقيق – حالات خيالية ادبية زادت المعنيين بادب قصص الخيال العلمي قد

تصدق أحياناً ولاتصدق في الاعم الاغلب في المستقبل المنظور وربما في المستقبل البعيد. فهي كالاحلام او الاماني العذاب وان كان بعضها ممكن التحقيق في يوم من الايام بملامحه الكبرى بالاقل.

الفصل الثاني
رواد ادب قصص الخيال العلمي

هناك بالطبع جوانب كبيرة وكثيرة تميز به رواد ادب قصص الخيال العلمي من حيث نظرة كل منهم الى المستقبل ومن ناحية وظيفة ادب قصص الخيال العلمي بنظره ومن جهة المجتمع الافضل كما يراه، وهذه امور متوقعة مردها في الاصل الى اختلاف المجتمعات التي ينشأ كل منهم فيها من الناحية السياسية والاقتصادية ومن الناحية التاريخية ايضا. وهناك ايضا جوانب مشتركة تنظر

الى النوع الانساني نظرة موضوعية وشاملة فتدلل الى التعاون والمحبة وتشجب الظلم والاضطهاد والتعصب الذميم. وهذا هو الذي بدا ابالتبلور والاتساع في أُدب قصص الخيال العلمي في اعقاب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥). وهذا هو الذي يضمن له استمرار التقدم في المستقبل بنظرنا.

وهنا ايضا اسماء لامعة كثيرة في ميدان ادب قصص الخيال العلمي في المجتمعات المتقدمة على اختلاف انضمتها السياسية والاقتصادية يلتقون في بعض الجوانب المشتركة في هذا النمط من انماط الادب العلمي او العلم الادبي من جهته ويختلفون اختلافاً كبيراً وكثيراً في جوانب اخرى ذات ارتباط وثيق بالنواحي الايديولوجية وبتقاليد المجتمع من جهة اخرى. والرواد المشار اليهم تتعذر الاحاطة بهم وهم يختلفون ايضا فيما بينهم في مستوى انتاجهم وفي مكانتهم بنظر القراء على الصعيدين المحلي والعالمي على حد سواء لعل أبرزهم واغزرهم انتاجا واوسعهم سمعة كتاب ادب قصص الخيال العلمي في الولايات المتحدة وفي انكلترة وفي الاتحاد السوفيتي، وهذه قائمة باسماء اشهرهم سقناها عبر سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر:

١ : في انكلترة :

1: H. G Wells

2: Arthe Clarke

3: John Wyndam

4: Eric Frank Russell

5: John christo pher

6: Kurt vonnegut, Jr

7: Machael Crichton

8: Philipp Dick

9: Thomas Disch

10: Robert Siluerberg

11: Graham Ballard

12: John Brunner

13: Daniel Keyes

14: Roger Zilazny

15: Larry Niven

16: Brian Aldiss

17: Bob Shaw

٢ : في الولايات المتحدة

1: Ray Brodbury

2: Jsaas Assimav

3: Robert Sheekley

4: Jack Williamsom

5: Clifford Simak

6: Jack Campbell,Jr.

7: Edmond Hamulton

8: Sianley Weinlurn

9: Arther Connan Doyle

10: Albert Hein Lein

11: Henry Kuttner

12: Fredrick Brown

13: Paul Anderson

14: Alfred Van — Nogt

15: Jack Vance

16: James Gunn

17: Gordon Dick son

18: Fritz Leiler

19: Richard Mathe son

20: Damon Knight

21: Andre Norton

22: Chact Oliver

23: Robert Hein Lein

٣: في فرنسة:

1: Nerne, J.

2: Toudouze, G

3: Rosoryaine, J.

4: Vercors, M.

5: Hennebert, N.

٣: في الاتحاد السوفيتي:

1: Arkadi Strugatsky

2: Boris Strugatsky

3: Jlye Nashansky

4: Pavel Annuel

5: Dmitri Bilenkin

6: Vladimer Fersov

7: Jgo Rosokhovutsky

8: Vladimir Shcher b.a Kov

9: Leonid Panasenka

10: Boris Romana vsky

11: Nalen Klyonov

12: Meramet Parnov

13: Jvan Mefremov

14: Eugeni Brandis

15: Evengi Noiskunsky

16: Vlidimir Kacov

لقد اغفلنا اسماء رواد اخرين من رواد ادب قصص الخيال العلمي هم – بنظرنا – اقل مستوى وشهرة وانتاجا من الاسماء التي ذكرناها.

ولابد من التنبيه هنا الى انه من المتعذر ان يتحدث المرء عن ادب قصص الخيال العلمي في انكلترا بمعزل عن ادب قصص الخيال العلمي في الولايات المتحدة وذلك للروابط اللغوية والتاريخية والتماثل في التقاليد الادبية

والاحداث المتقاربة من حيث الاساس. يضاف الى ذلك ان المختصين بأدب قصص الخيال العلمي الانكليز البارزين ينشرون مؤلفاتهم في الولايات المتحدة في كثير من الاحيان. ومع ذلك فانه بالرغم من اوجه التماثل الموجودة بين ادب قصص الخيال العلمي في بريطانيا والولايات المتحدة الا ان لكل من القطرين خصائصه المحلية المميزة. ومن هذه الزاوية فان اغفال هذه الخصائص المحلية او التقليل من اهميتها يسيئ الى الطابع المميز لادب قصص الخيال العلمي في كل من القطرين على حد سواء.

يبدو ان الموضوع الاساس المشترك بين جميع المعنيين بادب قصص الخيال العلمي في القطرين ومن ناحية ذيوع الاسم في ارجاء العالم المتعددة. بعضهم ذاع صيته منذ اربعينيات هذا القرن. وبعض اخر اثناء خمسينياته واخرون منذ الستينيات الى الوقت الحاضر. والفئة الأخيرة هذه واقعة في الغرب تحت تأثيرJohn Wedham الذي توفي قبل من عشرين عاما. وذلك لكونه بنظر المختصين بادب الخيال العلمي يتصف بخصب الخيال الاصيل والباع الطويل في الكتابة بالاسلوب الادبي الرصين الامثل. كما انه كان الكاتب الاول من كتاب ادب قصص الخيال

العلمي في انكلترا بعد H. G. Wells. ويعتبر الاخرون عيالا على الشكل او باخر. وبخاصة مجموعته القصصية التي نشرها عام ١٩٥٦ قبل وفاته بثلاث عشرة سنة – التي عنوانها «بزور الزمن» Seeds of Time كما انه تناول ايضا في كتاباته قضية المرأة او الحركة النسوية في الغرب عموما وفي انكلتراة بالذات في روايته Dumb Manitan وفي روايته الاخرى The trouble with Linchen – وفي الاقطار الغربية الاخرى – كان ومازال وسيبقى لفترة زمنية على مانظن معنيا بقضية العلاقة بين الحرية الفردية والالتزام الاجتماعي وبين العلم والمجتمع وبين الانسان والعالم اللامحدود في الزمان والمكان. وهذا هو من الجوهر مشكلة ادب قصص الخيال العلمي الكبرى المعاصرة على كل حال.

وهو ايضا – من بعض الوجوه احد الموضوعات الكبرى التي يتصدى لمعالجتها ادب قصص الخيال العلمي من الناحية الفلسفية والسايكولوجية والايديولوجية.

ولابد من التنبيه ايضا الى ان رواد ادب قصص الخيال العلمي الانكليز وغير الانكليز يختلفون فيما بينهم اختلافات كبيرة وكثيرة في مدى مساهمة كل منهم في النشر وفي الموضوعات الخاصة التي يتطرق اليها وفي درجة

خصب خياله – وقدقسمهم اصحاب الاختصاص – من بعض الوجوه الى ثلاث مراتب من حيث الخصوبة الخيالة وغزارة الانتاج وفي روايته الثالثة : Considen Hen Ways وهذه الروايات ادت بعد ذلك الى تعاظم الحركة النسائية في انكلترة بصورة خاصة وفي الغرب على وجه العموم وفي الولايات المتحدة بالذات في نهاية ستينيات هذا القرن وسبعينياته. كما ان Wendham عالج قضية الانسان معالجة جدية مستفيضة وعميقة الامر الذي مهد السبيل الى اخرين كثيرين غيره من المختصين بأدب قصص الخيال العلمي لمواصلة البحث في هذه القضية الاجتماعية المستعصية والملحة وفي مقدمة هؤلاء Alfred Hayle, Arther Clarke.

والجانب الاخلاقي في مشكلة الانسان يحتل مركزا مرموقا في ادب قصص الخيال العلمي عند Wedham بالذات كما اتضح ذلك في روايته المسماة

The D-ay of the Triffids

وفي روايته الاخرى المسماة:

The Mid wich Cokoons

وفي روايته – التي مر بنا ذكرها–:

Tge Trouble with Lunchen

لقد عالج هذا الكاتب اللامع في الروايات التي ذكرنا اسماءها – وفي غيرها ايضا بحكمة واصالة وادراك مشكلة الانسان المعاصر في المجتمع الغربي وبخاصة مايتعلق بحرية الفكر وظروف المعيشة والوقوف بحزم ضد المغريات المادية التافهة والسريعة الزوال. وقد نسج على منواله بالذات ولكن باسلوب طريف مختلف Sohn Brunner في روايته التي نشرها عام ١٩٧٥ بعنوان.
Totol Eclips حيث صور فيها نهاية الحضارة التي اطلق عليها اسم:
Sigma Dracomis

ومن الجدير بالذكر هنا ان ابطال روايات ادب قصص الخيال العلمي التي كتبها Bsunner يموتون في ارجاء بعيدة عن الارض بعد ان انتظروا عبثا لفترة طويلة من الزمن ان تصل اليهم مركبة من الارض لاعادتهم دون ان يقنطوا من احتمال وصولها من آخر لحظة من لحظات حياتهم وهم في الرمق الاخير وتقطع صلتهم بسكان الارض انقطاعا تاما ومطلقا.

ويجري هذا المجرى اتجاه James Balland في ادب قصص الخيال العلمي عنده وفي نظرته العنيفة ازاء موطن الانسان الحديث في العالم الغربي المعاصر وازاء النزعة

الفردية بشكلها الاناني المتطرف.

وهذا واضح ايضا من حيث الجوهر – في روايات قصص ادب الخيال العلمي التي نشرها المستندة الى احدث معطيات العلم النظري والتكنولوجي ومايسميه المؤلف الى تزييف حقائق التاريخ: وهذا واضح بجلاء في روايات Ar ther Clarke المختص بادب قصص الخيال العلمي الذائع الصيت ليس في انكلترة وحدها وانما ايضا في شتى ارجاء المعمورة.

وقد هاجم Clarke استخدام منجزات علوم الدماغ لتحقيق اغراض غير انسانية وهو واضح ايضا لدى Dick Morland وبخاصة في روايته المعروفة: Heart Clok التي نشرها عام ١٩٧٣. وهو واضح كذلك لدى Macheal Crilon وبخاصنة في روايته التي نشرها عام ١٩٧٢ وعنوانها:

.The Terminel man

وايضا عند Brian Aldons وبخاصة روايته التي نشرها عام ١٩٧٣ بعنوان:

Farmkem Stein Mofound

وفي روايته الاخرى المنشورة عام ١٩٧٤ وعنوانها:

The Eighty Minits Haus

وفي ضوء ماذكرنا نستطيع ان نقول: ان ادب قصص الخيال العلمي في انكلترا وفي الولايات المتحدة اخذ يتجه طوال السنوات الخمسة عشرة الماضية نحو تحليل النفس البشرية والكشف عن العوامل الاجتماعية التي تدفع رواد ادب قصص الخيال العلمي الى سلوك هذا الطريق بالذات . وقد اتضح ذلك مثلا في النزعة المسماة: Hell Cortographers.

كما ظهر ايضا بشكل ملحوظ في حركتين ادبيتين واضحتين المعالم هما:

الحركة المسماة «الموجة الجديدة» The New Wave والحركة الاخرى التي يطلقون عليها اسم «الحركة غير المنحازة» The Neusal Movement وكذلك في روايات Bob show لاسيما روايته المسماة: Tomorrow Lies in Ambush وهي رواية — او كتاب في الواقع تعبر افضل تعبير اسلوبا ومن حيث المحتوى من وجهة نظر المختصين بادب قصص الخيال العالمي المعاصرين في بريطانيا لانه تناول بالتحليل العلمي الدقيق موقع الانسان المعاصر في المجتمع الغربي الحديث وفيه ايضا نقد لاذع بصورة واضحة وباسلوب الخيال العلمي المترف لاساليب السيطرة على العقل والمشاعر الانسانية للمواطنين عن

طريق الدعاية التي تستخدمها بكفاءة ونشاط وسائل Remond to kacky في روايته: side EFFect.

ومن الطريف ان ننبه في هذا الصدد الى ان الادباء الانكليز والعلماء المهتمين بادب قصص الخيال العلمي اتجهوا في السنوات القليلة الماضية نحو معالجة قضايا التمييز العنصري وهذا واضح بشكل ملحوظ لدى Peter Dickens وبخاصة في روايته الذائعة الصيت التي نشرها عام ١٩٧٣ باسم: The Green Geen وهو واضح ايضا لدى JohnBrunnes بمواقفه الصلبة ضد الحرب بصورة خاصة وفي رواياته الثلاث المتكاملة التي تناول فيها قضايا اجتماعية معاصرة ملحة. وهي: Stand on Zenzibar التي نشرها عام ١٩٦٩ وروايته الثانية التي نشرها عام ١٩٧٢ وعنوانها: The Sheep Look وروايته الثالثة المسماة: The Shock of wave Rides المنشورة عام ١٩٧٥.

وقبل ان نختتم هذا الجانب من جوانب موضوع ادب الخيال العلمي في الغرب على وجه العموم وفي الولايات المتحدة على وجه الخصوص وفي بريطانيا بالذات بصورة اخص يجمل بنا ان نشير الى ان المرأة بدأت تساهم بعطاء في كتابة ادب قصص الخيال العلمي في السنوات القليلة الماضية في انكلترة بصورة خاصة وفي الولايات المتحدة

ايضا. وفي مقدمة النساء الامريكيات اللائي ساهمن في ادب قصص الخيال العلمي وربما المعهن الكاتبة الامريكية EZelella التي تناولت في رواياتها المتعددة قضايا كثيرة ذات محتوى اجتماعي أضفت عليها طابعا فضفاضا من خيالها الخصب الانيق. ومع ان هذه الكاتبة اللامعة » ومثيلاتها في اقطار غربية اخرى» بدأن بممارسة ادب قصص الخيال العلمي في فترة زمنية متأخرة نسبيا عن زملائهن الرجال الا ان الكثير من نتاجهن الادبي يتصف بالاصالة والاناقة وقد يفوق بعضه بعض ما انتجه الرجال.

ولابد من الاشارة هنا الى ان الاديب البريطاني Arthes Clake الذائع الصيت المختص بادب قصص الخيال العلمي الذي يعيش الان في سيريلانكا يعتبر بحق من ابرز العاملين في مجال ادب قصص الخيال العلمي المعاصرين ليس في انكلترة وحدها وانما ايضا على الصعيد العالمي. وهو كاتب ممتع طبقت شهرته الافاق. ومن ابرز رواياته التي ترجمت ايضا الى لغات كثيرة اخرى.

The Deep Ranje

THEFall oJmoon Dust

The Sands of Mars

The Dopfen gslan 2001 A Space Gdy ssey

اما في الولايات المتحدة فان ادب قصص الخيال العلمي بدأ على مايبدو بشكل متبلور منذ عشرينيات هذا القرن. وقد ذكرنا اسماء اشهر رواده.

ثم تطور بوضوح منذ ثلاثينيات هذا القرن واتسع مجاله وتعددت موضوعاته وكثر عدد المساهمين فيه.

ومنذ بداية سبعينيات هذا القرن تبلورت نزعة جدية في ادب قصص الخيال العلمي في الولايات المتحدة اطلق عليها المختصون اسم «الموجة الجديدة» The New wave

ويلوح ان ادب قصص الخيال العلمي المعاصر في الولايات المتحدة هو الان الادب الاكثر شيوعا والاكثر سعة من حيث تنوع موضوعاته وكثرة المساهمين فيه وغزارة انتاجهم بالقياس بالاقطار الغربية المتقدمة الاخرى وذلك بفعل الامكانيات المادية والثقافية والبشرية الهائلة في ذلك القطر.

وجدير بالذكر هنا ان مؤرخي ادب قصص الخيال العلمي الامريكيين (والبريطانيين ايضا) يعتبرون فترة اربعينيات هذا القرن «العصر الذهبي» The Golden Age لادب قصص الخيال العلمي لانها تقترن - بنظرهم بلمعان اسم Assimov, Nantley في الولايات المتحدة واسم Snask Ceaske في انكلترة مع العلم ان Brod الامريكي يحتل بنظر المعنيين بدراسة ادب قصص الخيال العلمي الموقع الاول والاهم بين هؤلاء جميعا لانه كما ذكرنا نادى بحرارة وجرأة وحماسة بضرورة نشر التفاهم الدولي والثقة المتبادلة بين الدول ذات الانظمة السياسية والاقتصادية المختلفة ووقف بصلابة ضد التعصب وضيق افق التفكير ونادى بضرورة نشر مبدأ العدالة الاجتماعية بين الناس كما سلف ان بينا.

وقد جعل Bsoelusu القضايا الملحة المشار اليها المحور الذي تدور عليه رواياته المتعددة والمترجمة الى لغات متعددة والتي أقبل عليها القراء بشوق واجلال بحيث نفدت طبعاتها بعد اشهر قليلة من نشرها ومن اعادة نشرها وفي مقدمتها:

The Martian Chronicles
The Dandellion
Fahrenheit 451

كما انه تناول هذه القضايا الاجتماعية البالغة الاهمية مع قضايا اجتماعية اخرى مماثلة في مجموعاته القصصية التي ضمت (١٢٠) قصة ترجم معظمها الى لغات اخرى وفي الولايات المتحدة بالنظر لضمان امكانياتها المادية والثقافية والبشرية كما ذكرنا ادباء لامعون اخرون مختصون بادب قصص الخيال العلمي ذكرنا اسماء بعضهم واعرضنا عن اسماء بعض اخر تحاميا للاستطراد.

واما ادب قصص الخيال العلمي الغربي الحديث الذي يزخر على ما اظن باسماء لامعة فأنه بالنظر لكوني اعتمدت في كتابي هذا على ماوقع في يدي من الكتب المؤلفة بالانكليزية فقد جاء الحديث عنه موجزا لايفي بالمرام. كما انني اهملت مضطرا ادب قصص الخيال

العلمي في الدول الغربية الاخرى وبخاصة المانيا للعامل نفسه. كما اهملت كذلك ادب قصص الخيال العلمي في الدول الاشتراكية عدا الاتحاد السوفيتي الذي عثرت على ملامحه الكبرى واسماء بعض رواده منشورة باللغة الانكليزية. مع العلم ان ادب قصص الخيال العلمي في الاتحاد السوفيتي بدأ متأخرا من الناحية الزمنية بالقياس بنظيره في الغرب لاسيما انكلترا والولايات المتحدة لعوامل كثيرة لايعنينا هنا امر التحدث عنها رغم اهميتها لكونها خارج نطاق دراستنا الموجزة هذه لادب قصص الخيال العلمي ومع ذلك فان هذا النمط الجديد من الادب العلمي اخذ بالتعاظم بمرور الزمن وبالانتشار السريع فتعددت ميادينه وكثرة موضوعاته وتكاثر مجموع المساهمين فيه.

وقد شهدت الفترة الزمنية التي اعقبت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) تبلورا ملحوظا في ادب قصص الخيال العلمي في الاتحاد السوفيتي على اساس علمي واقعي ولكنه اقتصر على مايبدو على مايسمى (مصير الاكتشاف..) اي نشوء وتطور الاراء العلمية النظرية والتكنولوجية منذ بداية كل منها كفكرة غير مستقرة ولا متبلورة الى نهاية نضجها واستكمالها معنوياتها الاساسية

لدى فريق من العلماء او لدى اجيال متتابعة من الباحثين ثم تحول موضوع «مصير الاكتشاف» هذا بعد ذلك وعلى أساسه الى مايمكن أن يسمى «مغامرات الافكار» Adventunre of Ideas حيث يرى القارئ ميلاد الافكار العلمية الجديدة او نشوء نزعة علمية جديدة كما يشاهد ايضا انتقال النظرية العلمية الجديدة الى حيز التطبيق في المجال التكنولوجي.

غير ان الاتجاه المشار اليه في ادب قصص الخيال العلمي اخذ بالتراجع والانحسار منذ سبعينات هذا القرن ليحل محله نمط جديد من ادب الخيال العلمي ينصب الكثير منه على التأمل في المجرات. والمجاميع الشمسية وفي الاجرام السماوية الهائلة البعيدة عن الارض من جهة وينصب بعض اخر على الجمع بين منطق العلم وبين الجوانب السايكولوجية والاجتماعية والايديولوجية كما يراها رواد ادب قصص الخيال العلمي السوفيت ممتزجة الى درجة التلاحم عندهم بالنواحي الاخلاقية. وقد بدا بعضهم بالتعبير عن هذه النزعة بملاحم شعرية لا عن طريق النثر كما هو مالوف.

ولابد من التنبيه هنا الى ان في الاتحاد السوفيتي نخبة كبيرة من الادباء البارزين في مجال ادب قصص الخيال

العلمي ترجمت آثارهم الى اللغة الانكليزية التي هي مصدر معلوماتنا الرصين في هذه الدراسة وقد ذكرنا اسماء اللامعين منهم تحاميا للاستقرار.

وخلاصة هذا الجانب من جوانب بحثنا المترجم هذا: ان ادب قصص الخيال العلمي اخذ بالانتشار السريع وتعددت ميادينه وكثر عدد المساهمين فيه وتعاظمت اهميته العلمية والادبية في الوقت الحاضر.

لقد بدأ نشر موسوعة «روائع» ادب قصص الخيال العلمي في الولايات المتحدة بمبادرة من دار النشر المسماة :

The Eastesn Press

47 Biehands Anemue

Noswalk, Comm. 06857

والموسوعة تضم «الروائع» mastes pieces التالية.

1:H. G. Wells: The tinne Maehine

2: H. G . Wells: The War of the Worlds

3: Frak Hesbest: Dune

4: Anthus Cl aske:

2001: A Space Odyssey

5: Assi m ov, 9.: The Foun dation of trilogy

6: Bradbury, R: The Martian Chronicles

7: Chessy, C.J.: Bo w nbelow station.

8: Hoyle, F.: The lack Cloud

9: Hein Lein, R.A:

Stranges ina Strange Land

10: Le G uin, M. K.: The Dispossessed

11: Farmer , P.T.: To your Scattered odies Gò

12: Clarke, A.C.: The Fou ntains of Paradise

13: Dela ng, S.: the Einstein Intersection

14: Zelazny, R.: ThisImmortal

واصحاب «الروائع» الذين تضم الموسوعة المزمع نشرها يتقدمهم «شيخهم» الرائد الاول H.G.wells الذي يقترن باسمه ادب قصص الخيال العلمي بشكله المتبلور المعاصر – باسم HGWells الأديب البريطاني الذائع الصيت باجماع اراء المعنيين بدراسته.

وقد حصل ذلك – على ما يبدو – عندما تحول اهتمام هذا الاديب اللامع من العلوم الطبيعية الى الادب اثناء فترة شبابه الاولى. معنى هذا أن H. G. wells جاء الى الادب عن طريق العلم: او انه «امتهن» الادب او عالجه بعقلية علمية وبثقافة علمية. يضاف الى ذلك ان H.G. wells كان يسعى سعيا حثيثاً كالملهوف – الى التزود بفروع المعرفة الشائعة في زمانه منذ مطلع هذا القرن ليتسع أفقه الادبي والعلمي على حد سواء كي يبقى حبيس العلم وحده او مقتصرا على الادب. اي انه – في الوقت نفسه – لم يهجر العلم عندما تحول للادب حتى بعد تجاوزه

حدود العلم التقليدية المعروفة ونظر إلى العلم نظرة ادبية شعرية ايضا اذا جاز هذا التعبير. كما أنه كان مهيئا من الناحية السايكولوجية بالذات لولوج حقل الادب منذ تسعينيات القرن الماضي وهو في ريعان الشباب وذلك عن طريق دراساته الخاصة والمامه الواسع العميق بمنجزات العلم في ذلك الزمان وباطلاعه على الآراء الاجتماعية التقدمية التي بدأت بواكيرها بالظهور انذاك، وقد لاحظ H.G. wells بثاقب رأيه الطبيعة الموضوعية لظاهرة التقدم الاجتماعي وآمن به أيضاً.

كان H.G. wells مفتوناً بالمستقبل الكامن في الحاضر الذي يعيش فيه وفي اتجاهات سيره العام.

وقد ظهر ذلك - بصورة ضمنية وغير مباشرة على الاغلب في رواياته التي كرسها لادب قصص الخيال العلمي: وهي روايات ساخرة - في جوهرها - تناول فيها كل شيئ مزعج - بنظره - شاهده في العالم الذي عاش فيه في فترة تأريخية معينة على الصعيدين المحلي والعالمي على حد سواء وقد حول H. G. wells - بخياله المجنح بعض جوانب ذلك الواقع (المر) الى ماهو اكثر مرارة.

فقد تحول كل قبيح - عنده في ادب قصص الخيال العلمي الى ما هو اقبح منه. وجريا مع منطقة هذا فقد

تحول كل بليد في الواقع المحسوس الى ماهو أبلد منه في ادب قصص الخيال العلمي عنده: وكل سخيف على سطح الارض تحول الى ماهو اسخف منه في القمر او في الكواكب الاخرى. وهكذا.

يتضح اذن ان H.G. wells تحدث عن الحاضر بلغة المستقبل : او انه نظر الى الحاضر بعين المستقبل وجسد جوانبه السلبية بمبالغاته الادبية الطريفة. وهذه الناحية بالذات من نواحي ادب قصص الخيال العلمي بالذات هي بنظر مؤرخيه الاكثر اهمية من توقعاته او تنبؤاته بتطور العلم والتكنولوجيا والنظام السياسي والعلاقات الاجتماعية التي راد ان ينقلها من ذهنه الى قرائه.

لقد كانت باكورة اعماله الادبية في مجال ادب قصص الخيال العلمي التي صنفها وهو في ريعان الشباب قصة خيالية نقل فيها فئة من «رواد الفضاء» الى القمر لسبر أغواره وهم يمتطون صهوة « الماكنة الزمنية» التي ابتدعها والتي كان بمستطاعها ايضا نقل الركاب الى اي مكان اخر في هذا العالم الرهيب الرحيب الذي لاتنتهي أرجاؤه الممتدة عند حد.

«الماكنة الزمنية» هذه عندما تنطلق بركابها من سطح الارض فانهم يرون ان الزمن يتسارع بشكل مذهل بحيث

ان قروناً بكاملها تنطوي طي السجل للكتب.. في لحظات . ولكن الركاب او المسافرين طوال هذه الرحلة الطويلة الشيقة ملتصقين بجدران المركبة الزمنية ولا يبرحونها.

ثم تتداعى تلك الجدران وتنبت بدلها الاشجار الممرعة التي سرعان ماتختفي هي الاخر لتحل محلها العمارات الشاهقة (حضارة الاسمنت بتعبير زميلنا الاديب اللامع الأستاذ فاروق سلوم) التي تتهاوى بدورها. وهكذا دواليك. كما ان الشمس التي تتهاوى في الفضاء وهي تطوي الافق بسرعة مذهلة.

والمسافرون على متن هذه الماكنة الزمنية بمستطاعهم الانتقال في اية لحظة الى اية بقعة اخرى من بقاع هذا الكون الهائل الاتساع. وهم في حركتهم الدائبة هذه من مكان الى اخر يطلعون على عوالم مجهولة ويكشفون عن اسرار كامنة فيتسع افقهم وتتفتح امام اعينهم عوالم مجهولة وامكانيات زمانية ومكانية مذهلة.

وبايجاز: لقد كانت رواية «الماكنة الزمنية» ظفرا لامعا حققه ادب قصص الخيال العلمي لهذا الكاتب الشاب الساخر المبترم باوضاع مجتمعه وعصره ومن هذه الزاوية نجد النقاد يقفون موقف الاعجاب والاكبار

عندما نشرت هذه الرواية عام ١٨٩٥ ولم يبلغ مؤلفها العشرين من عمره ثم انتشر بعد ذلك وعلى اساسه ادب قصص الخيال العلمي الى ان بلغ ارفع مستوياته في الوقت الحاضر.

والموسوعة تضم ايضا – بالاضافة الى المؤسس اسماء لامعة كثيرة ابرزها بنظرنا: الاديب الامريكي اللامع Rayradhusy والاديب الإنكليزي البارز Anthus Ceaske. فالاول منهما ذو شهرة عالمية واسعة وهو موضع تقدير الاوساط العلمية والادبية في الاقطار المتقدمة وذلك لمشاعره النبيلة ازاء جميع الناس بصرف النظر عن اقطارهم ولغاتهم ومعتقداتهم. وهو من اشهر دعاة المحبة والوئام بني الانسان ومن اصلب مناوئي التعصب الذميم والاضطهاد والظلم. ومن اشهر قصصه في مجال ادب قصص الخيال العلمي – بالاضافة الى «رائعته» التي تضمنتها الموسوعة – مايلي:

1: The Danallion Wime

2: Fahrem heit 4510.

اما الثاني منهما – الذي يعيش ، الان في سيريلانكا فله ايضا – بالاضافة الى «الرائعة المنشورة في الموسوعة – مايلي :

1: The Deep Range

2:The Fall of Moondust

3: The Sands of Mars

4:Rande vous

5: The Fountains of Paradise

وكم كان بودنا لو اتسع صدر الموسوعة لنشر احدى روائع «الأخوين» السوفيتيين:

Arcade and Bor is Strugatsky

المترجمة الى اللغة الانكليزية :

1: The Land of Purple Clouds

2: The Hotel of the Dead

3: The Inhib ited gsland

4: A Beetle in Ant Hill

واتسع صدرها ايضا لنشر احدى رروائع الادباء الفرنسيين الذين ذكرنا اسماءهم وبخاصة Jules Verne ونود ان نقترح – في هذه المناسبة على دار ثقافة الاطفال ان تقتني في مكتبتها نسخة من الموسوعة المشار اليها وان

تعهد الى لجنة من اصحاب الكتابة والاختصاص بتعريبها، وان تقتني المكتبة المركزية نسخة من الموسوعة ايضا. وفي ضوء ماذكرنا نستطيع ان نقول ان المع رواد ادب قصص الخيال العلمي في جميع الاقطار يشتركون في بعد النظر الاجتماعي وفي تخطي الصعاب الايديولوجية والحواجز الجغرافية والسياسية والاقتصادية التي تقسم الناس الى فئات متناحرة ومتباغضة وينظرون الى الناس جميعا على قدم المساواة في كل زمان ومكان بصرف النظر عن جميع الاعتبارات الاخرى.

وهم جميعا يمقتون الظلم والاضطهاد بجميع صوره وتعدد درجاته من اي مصدر جاء ويتطلعون الى المستقبل الافضل ويدعون الى نبذ التعصب والى انفتاح الذهن والتعاون والاحترام المتبادل، مع فنية جمالية انيقة بينهم هي في الحقيقة مصدر ادب قصص الخيال العلمي الحديث. ومعلوم ان التعدد والتنوع هو الذي يعطي للحياة طابعها المميز الممتع: وهما ايضا احدى سمات الطبيعة الحية والجامدة على حد سواء: شريطة ان يكونا اداتين من ادوات التقدم وتظافر الجهود. لاالعكس: فلاتستخدمان للتناحر والتشتت وبث الفرقة.

الفصل الثالث

أدب قصص الخيال العلمي وعالم الأطفال

لتربية الخيال– العلمي وغير العلمي. لدى الطفل منذ سن مبكرةأهمية تربوية بالغة. وهذا يتم في المنزل وروضة الاطفال بوسائل كثيرة لعل، اهمها: القصص الخرافية التي يتلوها الكبار، او يرونها للاطفال شريطة ان تنطوي تلك القصص الخرافية على مضامين اخلاقية ايجابية وان تكون سهلة الأسلوب واضحة المعنى بالنسبة للاطفال فتثير اهتمامهم وتداعب مشاعرهم المرهفة الرقيقة.

ويدخل ضمن ماذكرناه القصص الخرافية التي يرويها الاطفال (من نسج خيالهم) على الكبار عن حوادث مفتعلة مهمة بنظرهم. وعلى الكبار - في هذه الحالة ان يبتعدوا كل الابتعاد عن اتهام الاطفال بالكذب لان تلك القصص «الكاذبة» ليست هي كذلك من الناحية الاخلاقية (المألوفة عند الكبار) دائما هي تغاير الواقع. فلابد ايضاً من تشجيعها وتعديلها وتطويرها لانها بالاضافة الى كونها تنمي خيال الاطفال تمدهم بثروة لغوية كبيرة وتعودهم ايضا على الطلاقة في الحديث وعلى الجرأة الأدبية.

وجدير بالذكر هنا ان القصص القصيرة الخرافية المثيرة تحتل في الوقت الحاضر مكانة مرموقة في ادب الاطفال منذ سن مبكرة وهنا تبدو اهمية هذا النمط من القصص الذي يرويه الكبار للاطفال والذي يرويه الاطفال للكبار. شريطة ان تكون مضامينه - اخلاقية - كما ذكرنا وان يكون سهل الاسلوب واضح المعنى يثير اهتمامهم ويشبع ميولهم الانفعالية الفضفاضة.

وجدير بالذكر هنا ايضا ان تعليلات الاطفال للاحداث والعلاقات بين الاشياء وبخاصة ربط الاسباب بالنتائج بشكل غير مألوف بنظر الكبار، وسخيف او

مضحك في بعض الاحيان يجب عدم الحيلولة دون تعبيرها عن نفسها اذا لم يكن مانع اجتماعي وجيه يستلزم ذلك. ويتطلب تعديلها وفق مستوى نضج الطفل الثقافي. وهنا لابد من ان يبتعد الكبار عن التزمت واعتقد في مثل هذه الحالات وان يتذكروا دائما وابدا انهم انفسهم سبق ان مروا بمرحلة نمو مبكر مماثلة واجتازوها.

اما العامل السايكولوجي الرئيس في غرابة تعليلات الاطفال للظواهر الاجتماعية والطبيعية فهو بنظرنا يعود في الاصل الى الفجوة الواسعة المدى البعيدة الغور بين معرفة الكبار لطبيعة الاشياء والعلاقات السببية بينها وبين معرفة الاطفال البدائية الامر الذي يجعل الاطفال – دون تعمد – ان يبتدعوا تعليلات طريفة ومثيرة في كثير من الاحيان وذلك لملئ تلك الفجوة اي انهم يعوضون عن نقص معرفتهم بابتداع تعليلات خرافية خيالية غريبة عن عالم الكبار وعن المعرفة السائدة. وهذا يعني بعبارة اخرى ان خيال الطفل في هذه المرحلة المبكرة هو اداة سايكولوجية ايجابية فاعلة يستخدمها الطفل لملئ الفجوة الموجودة بين معرفته بما حوله وبين معرفة الكبار يضاف الى ذلك – ولايقل اثرا عنه ان الاطفال يجدون متعة سايكولوجية في تلك التعليمات الساذجة ويكتسبون خبرة مثيرة في عملهم

الذهني هذا. فلابد اذن من فتح جميع المنافذ الاجتماعية المتاحة امام الاطفال وتهيئة جميع الامكانيات المتوافرة لكي يعبروا تعبيرا حرا وعفويا لايعرف الحدود او القيود.

ثم بعد ذلك وعلى اساسه وبصورة متدرجة يتوصلون بمساعدة الكبار في مجرى نضجهم الثقافي إلى التعليلات المعقولة والمقبولة ولهذه الناحية من نواحي خيال الاطفال مضامين تربوية اخر كبيرة وكثيرة اشرنا الى بعضها في كتابنا الذي نشرته دار ثقافة الاطفال بعنوان (اراء حديثة في تفسير طبيعة الطفل وفي تربيته» ولانرى مسوغاً لاعادتها بل نكتفي بمجرد الاشارة اليها

ومن تلك الزاوية بالذات نجد فئة كبيرة من ابرز المختصين بادب الاطفال بما فيه بالطبع ادب قصص الخيال العلمي في الدول المتقدمة بصورة خاصة يولون اهتمامهم الكبير للدور الايجابي الفعال الذي تؤديه القصص القصيرة الخرافية في تربية خيال الاطفال بالدرجة الاولى والاهم وفي تنميتهم خلقيا وجماليا وفي صقل مشاعرهم المرهفة وتوسيع معرفتهم بما يحيط بهم وزيادة ثروتهم اللغوية وخلق الحافز السايكولوجي لديهم لاقتحام المجهول.

وقد ثبت بما لايقبل الشك في ضوء الدراسات

الميدانية والتجارب المختبرية التي اجراها المهتمون بتربية الاطفال وفي مجرى الحياة اليومية المعتادة ان الاطفال يجنحون منذ سن مبكرة بحكم تكوينهم الفسلجي والسايكولوجي ومستوى نضجهم الثقافي – نحو الاصغاء بولع شديد الى مايرويه الكبار إليهم او يقرأونه عليهم ومايقرأونه هم انفسهم بعد ذلك وعلى أساسه من هذا النمط من القصص الذي تنشره كتب الاطفال ومجلاتهم ومايشاهدون على شاشة التلفزيون من المغامرات والحوادث المثيرة والاخبار غير المألوفة التي تتحدث لهم على السنة الطيور والحيوانات او التي ينسجها خيال الاطفال الاخرين. فلا عجب ان راينا الاف الكتب والمجلات والافلام السينمائية والتلفزيونية تطفح – في شتى ارجاء العالم لاسيما في الدول المتقدمة – وبصورة عديمة الانقطاع بهذا النمط من القصص الخرافية المثيرة التهذيبية كما نجد ايضا فريقا من الم‍ع الادباء والمربين وعلماء النفس وعلماء الاجتماع والرياضيات والفيزياء وعلوم الفضاء قد تخصصوا في ادب الاطفال وبرعوا فيه وبخاصة مايتعلق منه: بادب قصص الخيال العلمي [1].

حبذا لو انتقي بعضه واعرب. وحبذا ايضا لو تألفت لجنة من المعنيين بادب الاطفال من شتى الاختصاصات لانتقاء قصص من كتاب «الف ليلة» وتهذيبها لان الكتاب المشار اليه مدون بلغة مبتذلة وفيه كلمات باللهجة العامية (العراقية) وبعض الفحش.

للعب – بجميع صوره وبخاصة الخيالي منه دور بارز في تربية الخيال (العلمي وغير العلمي) عند الطفل منذ سن مبكرة بالاضافة بالطبع الى دوره الملحوظ في تنمية شخصية الطفل وبلورة قدراته العقلية وصقل مشاعره وزيادة ثروته اللغوية وتعويده على التعاون والتعرف على العالم المحيط به الاجتماعي والطبيعي على حد سواء. ومن هذه الزاوية تتضح رعاية الاطفال منذ سن مبكرة في المنزل والروضة واحاطتهم بالحنان والتوجيه بصورة متواصلة وان تتهيأ لهم الامكانيات المادية والثقافية اللازمة والملائمة .

وهذا هو الاساس المتين على مانرى الذي جعل علماء نفس الطفل بالذات والمعنيين بتربيته منذ سن مبكرة يؤكدون على اهمية لعبة الشطرنج للاطفال منذ سن مبكرة من ناحية فسحها المجال الواسع لتنمية خيالهم.

وتعويدهم على تركيز الانتباه وتعبئة الطاقة الذهنية وعلى الاستنباط والاستدلال والحذر والمباغتة وايجاد البدائل المتعددة لحالات افتراضية متعددة ومتنوعة.

اثبتت الدراسات الميدانية والملاحظات اليومية المعتادة ان الطفل يكون اكثر جدية وتركيزاً واهتماما ومثابرة اثناء اللعب الخيالي او الفكري منه بصورة خاصة.

ودلت ايضا على انه من غير المبالغ فيه ان يقال ان اللعب هو النشاط الجدي الوحيد الذي يمارسه الطفل في مجرى حياته اليومية المعتادة منذ سن مبكرة. ومن الجهة الثانية فان اللعب هو الاداة الاجتماعية الوحيدة التي تفسح المجال امام الطفل للتعرف على بيئته الاجتماعية والطبيعية وزيادة ثروته اللغوية وتعويده على التعاون والتقيد بالنظام الذي تجري الالعاب وفق مستلزماته كما ان اللعب على مايبدو - هو المجال السايكولوجي الوحيد الايجابي الذي يتيح الفرصة المؤاتية لتطور قدرات الطفل الابداعية وفي مقدمتها الخيال. هذا بالاضافة بالطبع كون اللعب وسيلة من وسائل التسلية البريئة وصقل المشاعر او الانفعالات وتهذيب الاخلاق وغرس صفات المثابرة وتركيز الانتباه وبعث الثقة بالنفس والحث على التعاون والالتزام بالقواعد العامة المرعية في الالعاب.

ومن هذه الزاوية فان اللعب من وجهة نظر علم النفس الحديث والتربية المعاصرة ليس هو - في الجوهر - مناقضا للجد او انه نشاط ذهني وعضلي عابث كما يظن بعض الناس دون وجه حق وبخاصة بالنسبة للطفل في سن مبكرة

وما يصدق على القصص الخرافية وعلى اللعب من

ناحية تنمية خيال الاطفال منذ سن مبكرة يصدق ايضا على اسئلتهم واستفساراتهم التي لاتكاد تقف عند حد في مختلف المجالات: وبخاصة عما يدور في أخيلتهم عن الاشخاص والاشياء والاحداث والظواهر الاجتماعية والطبيعية. فلابد والحالة هذه من ملاحظة او مراعاة مرحلة نضجهم الثقافي المبكر وتعويدهم منذ نعومة اظفارهم على التوصل الى اجابات معقولة ومقبولة واقعية وخيالية مع ايجاد بدائل متعددة اثناء حلهم قضايا يواجهونها او يطرحها عليهم الكبار وان يرتبط ذلك دائما وابدا بمستوى نضجهم الثقافي واللغوي من ناحية الاسلوب والمحتوي ومن حيث المفردات المستخدمة وان يكون الغرض الاسمى المراد تحقيقه بالاضافة الى اعطاء الاجوبة الصحيحية تنمية الخيال ورفعه الى مستوى اعلى.

لقد وجدت تعبيرات قدرات الاطفال الابداعية في مجال الفنون الرفيعة وبخاصة الرسم رعاية كبيرة من لدن المعنيين بتربية الاطفال منذ القرن الماضي حيث جرت محاولات كثيرة جدية ومتنوعة لدراستها دراسة علمية سايكولوجية نظرية وميدانية لتحقيق اغراض تربوية كبيرة وكثيرة. ومن هذه الزاوية نجد ان دراسة رسوم الاطفال تكشف بعمق عن اخيلتهم المعبر عنها في تلك الرسم.

وقد لوحظ ان دراسة رسوم الاطفال لاغراض تربوية وسايكولوجية طغت طغياناً ملحوظا على دراسة اوجه نشاطهم الاخرى.

وذلك لان رسوم الاطفال دلائل على خصائص مراحل النمو العقلي لاسيما في الخيال عند الاطفال. بالاضافة الى انها من عوامل التنشيط والتسلية وتركيز الانتباه.

وفي الاطار العام المشار اليه يمكن تفسير جهود ركسي في ايطاليا وهربرت ريد في انكلترا وفريز في فرنسا ولافبلر في الولايات المتحدة وفبكوتزكي في الاتحاد السوفيتي وجان بياجيه في سويسرا واخرون كثيرين تتعذر الاحاطة باسمائهم ممن درسوا باستيعاب بصورة مباشرة او ضمنية دور رسوم الاطفال في تنمية خيالهم وفي التعبير عنه. ومع الاهمية الخاصة لدراسات رسوم الاطفال التي بدأت منذ نهاية القرن الماضي الا ان تلك الدراسات على وجه العموم وبخاصة القديمة منها كانت تجنح دون سند علمي بمقاييسنا الراهنة نحو نقل اساليب الكبار من محترفي مهنة الرسم نقلا ميكانيكيا الى عالم الاطفال دون مراعاة مرحلة نمو الطفل العقلي والانفعالي والجسمي والاجتماعي مع اهمال خصائصه السايكولوجية المميزة من جهة ودون

الكشف عن الجانب الخيالي فيها لتنميته ورفعه الى مستوى اعلى من جهة اخرى.

لقد ادى تقدم الدراسات السايكولوجية منذ بداية القرن الذي نعيش فيه وبخاصة في المانية بجهود الكثيرين من المعنيين بدراسة الاطفال وفي مقدمتهم كارل بوهلر وغرينيه شارلون بوهلر وكذلك دراسات ماري منتسوري في ايطاليا ودراسات سوزان ايزاك في بريطانيا وابحاث كيزل في الولايات المتحدة نقول ادى تقدم الدراسات (مع اختلافها) الى حدوث رد فعل عنيف في قضايا رسوم الاطفال الامر الذي ادى – من بين امور كثيرة اخرى الى ان تتجه دراسات رسوم الاطفال الى الجهة المعاكسة كما اتضح ذلك مثلا في عشرينيات هذا القرن في النمسا في نزعة المربي النمساوي سيزاك الرامية الى ترك الطفل يرسم على سجيته وبمبادراته العفوية دون تدخل او توجيه من جانب الكبار المحيطين به والمسؤولين عن تربيته. وذلك بنظر سيزاك هذه المبادرات الفردية العفوية هي الاساس الذي تستند اليه قدراته الخيالية دون تشويه او تحريف او «تغربل» يجريه الكبار عليها. وقد ادت هذه النزعة – بشكلها المتطرف المبالغ فيه الى حصول اثار سلبية ضارة في رسوم الاطفال الخيالية من الناحية التعبيرية.

كل ذلك يجعل المواءمة بين التعبير الحر (العفوي) للاطفال في رسومهم وبين توجيه الكبار — دون فسد او اكراه. امر بالغ الاهمية وبخاصة اذا روعيت خصائص مراحل نموهم السايكولوجي التي ساهم في بلورتها في الوقت الحاضر:

بياجيه — في سويسره — وفيكوتزكي في الاتحاد السوفيتي وبرونر في الولايات المتحدة وان يؤكد المشرفون على تربية الطفل دائما وابدا على الجانب الخيالي منها.

ذلك مايتصل بخيال الاطفال منذ سن مبكر عندما يعبر عن نفسه بقصصهم والعابهم واسئلتهم وفي رسومهم. اما مايتصل بتعبيرات خيالهم. في مجال الادب فيمكننا ان نقول ان مجال التعبير الادبي يبدأ عند الطفل منذ سن مبكرة ايضا مع تعلمه اللغة وذلك عبر الكلمات التي يبدأ بترديدها واللعب (بتشديد اللام الثانية المفتوحة وفتح العين) التي يستخدمها اثناء استمتاعه بالاصغاء الى موسيقاها وجرسها (بكسر الجيم وسكون الراء).

ثم — بعد ذلك وعلى اساسه — عن طريق القاطع القصيرة والبسيطة التي يتعلم الطفل بها (بلهجته الطريفة) معبراً بها عن مشاعره واحاسيسه او حالاته السايكولوجية ونغماته الغنائية الشعرية العفوية.

ومن الجدير بالذكرها ان خيال الطفل يعبر عن نفسه اثناء نشاطه اليومي المعتاد بشكل يختلط فيه التعبير اثناء الرسم واثناء الغناء او ترديد الكلمات فالطفل يرسم مثلا في الوقت الذي يغني فيه ويردد الكلمات الرقيقة ويروي او يرسم الحوادث الخيالية ذات العلاقة بما يرسمه ومن الجهة الثانية فأن خيال الطفل في مجال الموسيقى والغناء يكتسب اهمية خاصة .

فلابد من رعايتها رعاية خاصة ومتواصلة.

وهذا هو الذي ادى - بنظرنا الى ان تصبح قضية خيال الطفل في المجال الموسيقى بالذات (وفي الغناء المرتبط به وبالشعر ايضا) موضوع دراسات مستفيضة لدى كثير من المختصين في الدول المتقدمة المعاصرة فنشأت مراكز تربوية خاصة لتحقيق هذا الغرض على افضل وجه.

ونظرا لاهمية الموسيقى في تربية الخيال عند الطفل منذ سن مبكرة (بالاضافة بالطبع الى مكانتها الممتازة في صقل مشاعر الطفل وتهذيب ذوقه)

فقد أثرنا ان نتحدث عن هذه القضية بالذات بشيء من التفصيل تمهيدا لتوضيح صلتها الوثيقة بموضوع او قصص الخيال العلمي من حيث علاقته بالاطفال.

لقد اثبتت الدراسات الحديثة في مجال علم النفس والتربية ان للموسيقى التي يتلقاها الطفل منذ سن مبكرة عن طريق الاصغاء في اول الامر ثم عن طريق الممارسة الفعلية بعد ذلك وعلى اساسه أثر سايكولوجيا عميقا في تكوين شخصيته وصقل مشاعره وتهذيب ذوقه واثارة حسه المرهف وتنمية قدراته الابداعية (الخيالية وبخاصة اذا اقترنت بالاغاني الشجية الملائمة.

والموسيقى – في جوهرها – على مايبدو اصوات مختارة مرتبة بشكل معين ومن هذه الزاوية فان كل طفل بمستطاعه ان يختار عفويا في اول الامر ويرتب الاصوات بطريقته الخاصة ولما كانت الموسيقى بطبيعتها فنا يتوقف بالدرجة الاولى والاهم على توافق ثلاث عمليات متداخلة متلازمة ومتبادلة الاثر.

– هي التلحين والعزف والاصغاء – فان بمستطاع اي طفل ان يلحن وان يعزف وان يصغي بطريقته الخاصة وفي اطار ثقافة مجتمعه الموسيقية وادوات العزف المتاحة وهذا يعني ان بامكان طفل سوي ان يمارس – بهذا الشكل او ذاك والى هذه الدرجة او تلك عمليات التلحين والعزف والاصغاء بطريقته الخاصة فهناك إذن اساليب لاتحص للعزف والتلحين والاصغاء لصنوف

الانغام التي تطلقها الالات الموسيقية (البسيطة والمعقدة) والاصوات الايقاعية التي تعبر عنها الحبال الصوتية التي تكون احيانا بديلا لادوات العزف.

كما ان الموسيقى - من الجهة الثانية بحكم طبيعتها الانيقة المترفة تجعل الطفل يذوب في الجماعة التي تصغي الى العزف الموسيقي الشجي وفي الجماعة التي تشاطره العزف ايضا مع احتفاظه بمقوماته الشخصية في الوقت نفسه كما ان الموسيقى ايضا بحكم طبيعتها المترفة الانيقة وانغامها الشجية الفنية الجمالية تغمر الطفل بالسعادة والبهجة والحماسة وبخاصة اذا كانت مصحوبة - كما ذكرنا بالغناء الرقيق.

لقد ازدادت اهمية التربية الموسيقية للاطفال منذ سن مبكرة في الوقت الحاضر على الصعيدين المحلي والدولي. وقد عقدت مؤتمرات دولية متعددة لهذا الغرض وساهمت فيها مساهمة ايجابية فعالة منظمة اليونسكو والجمعية الدولية للتربية الموسيقية ومجلس الموسيقى العالمي.

يظن كثير من المعنيين بالتربية وعلم النفس واصحاب الاختصاص في الموسيقى ان تعلم الموسيقى لا يكون في متناول كل طفل سوي لانه يستلزم بنظرهم ان يمتلك الطفل منذ الولادة «قدرة» سايكولوجية خاصة: «قدرة موسيقية،» او «اذنا موسيقية» بتعبير المختصين بالموسيقى. ان هذا الراي – بنظرنا – ليس صحيحا على هذا الوجه من وجوه الاطلاق ولابد من تحديده وذلك بتوضيح جوهر او طبيعة هذه القدرة الموسيقية المفترض وجودها دون سند علمي.

وعندي – اذا كان لي عند كما يقول الجاحظ ان لدينا في تعليم الموسيقى وفي تعلمها (وفي تعليم الرسم او النحت او الشعر والادب او الرياضيات وفي تعلمها) ثلاثة مستويات كبرى متميزة (مع فروق فردية داخل كل منها يتعذر حصرها ولايعنينا أمرها هنا) هذه المستويات الثلاثة هي على مانظن – في ضوء علوم الدماغ المعاصرة: اولا: المستوى العام المشترك الموجود لدى جميع الاطفال الاسوياء (بمعنى غير المتخلفين عقليا بسبب خلل فسلجي في الدماغ): الحد الادنى المتوافر الذي يعبر عن نفسه من حيث جانبه الفطري بتماثل تركيب الدماغ وهذا يعني – بعبارة اخرى ان بمستطاع اي طفل سوي ان يتعلم الموسيقى

اذا هيئت له الظروف البيئية الملائمة داخل المدرسة وخارجها واذا اصبحت الموسيقى جزءا من مناهج الدراسة الرسمية تماما كما يتعلم التاريخ او الجغرافية وسائر الموضوعات المنصوص عليها في المناهج الدراسية واذا تهيأ له المعلم الكفوء والملتزم. وهذا يتضمن ايضا ان بمقدور اي تلميذ سوي ان يتذوق الموسيقى وان يصغي اليها وان يمارسها بابسط اشكالها في اول الامر كل ذلك يحصل بسهولة ويسر لكون دماغ الطفل في اعلى مستويات مرونته الفسلجية وقدرته على الاستجابة ولكون مشاعره او انفعالاته وخياله ايضا في ارقى درجات مرونتها ولكون الطفل ايضا خالي البال من قضايا الحياة اليومية المعتادة ومشاكلها الكثيرة المعقدة.

وتلك هي الفترة «الحرجة» في حياة الطفل العقلية من ناحية مرونة الدماغ فاذا لم تستثمر حدها الاقصى وعلى أفضل وجه وباكفأ الاساليب تحجرت المرونة الدماغية بعد ذلك وتعذر انعاشها وفات اوان ترسيخ اسس التربية الموسيقية.

ومن هذه الزاوية يمكن ان يقال: ان الذين لايكترثون بالموسيقى (في الاصغاء او الممارسة) من الكبار بانهم الذين فات اوان تعلمهم اياها على الوجه الاتم اثناء

الطفولة وليس بفعل فقدانهم القدرة الموسيقية» المزعومة.
ثانيا: اما المستوى الثاني من مستويات تعلم الموسيقى وتعليمها فهو ارقى نسبيا من المستوى الاول وأضيق منه ولكنه يحصل على اساسه ويشترك معه في خصائصه الفسلجية والسايكولوجية التي مر ذكرها في المستوى الاول. والمستوى الثاني هذا هو مستوى تعلم الموسيقى لاغراض مهنية: اي تعليمها بعد ذلك وعلى اساسه (كتعليم التاريخ او الجغرافية مثلا): مهنة تدريسية. ومعلوم انه لايشترط بمعلم التأريخ مثلا ان يكون مؤرخا (بالمعنى الدقيق: ملما بفلسفة التاريخ وقادرا على تحليل الحوادث التاريخية والاستنباط الخ) هكذا الحال مع مدرس الموسيقى: وان كان الامر في هذه الحالة حاجة مدرس الموسيقى الى الممارسة وبذله الجهد.

وهذا يعني — بتعبير اخر ان للعوامل البيئية المكتسبة داخل المدرسة وخارجها الاثر الحاسم في هذا الباب ولاعلاقة للوراثة الفسلجية بذلك الا عرضا.
ثالثا: واما المستوى الثالث فيستلزم بالطبع امكانيات دماغية خاصة (تطور عال في القسم الخلفي الاعلى من الدماغ بنظر المختصين بعلوم الدماغ) من جهة كما يستلزم بيئة ثقافية موسيقية ورغبة صادقة وجامحة في المجال

الموسيقي الامر الذي يؤدي الى ابتداع نظريات موسيقية وانتاج اعمال موسيقية تتصف بالاصالة.

وفي ضوء ماذكرنا نستطيع ان نقول ان هناك علاقات وثيقة ومتبادلة الاثر بين مختلف اشكال تعبيرات خيال الاطفال في مجال الادب والفن: الخيال الادبي بتعبير اخر: جنوح الاطفال نحو مختلف انواع الخيال الفني الجمالي فلابد من تهيئة جميع الظروف البيئية الملائمة لتنمية الخيال الادبي وتطويره في الاسرة والمدرسة ووسائل الثقافة والاعلام: التلفزيون: الصحافة: الاذاعة: السينما: المسرح: ومن المستحسن بنظرنا ان تقام في المنزل والمدرسة وخارجهما أن امكن معارض بسيطة لمنجزات الاطفال الفنية المتنوعة وان يحاط الاطفال دائما بالرعاية والتشجيع في بذل الجهد والتعبير عن مكنونات النفس والمشاعر والمطامح والقدرة على تخطي الصعاب واصلاح الاخطاء ومن المستحسن ايضا عقد مباريات ادبية وفنية بين الاطفال وتشجيعهم على المنافسة البريئة والعمل الجماعي والنظر الى الانجاز الشخصي في ضوء تربيته الاجتماعية.

ذلك مايتصل بتعبيرات الخيال الادبي عند الاطفال وهو كما ذكرنا جانب واحد من جانبي ادب قصص

الخيال العلمي وعالم الاطفال اما الجانب الآخر فهو جانب الخيال العلمي التكنولوجي بالدرجة الاولى والاهم في هذه السن المبكرة من حياة الطفل.

يحتل خيال الاطفال في المجال التكنولوجي (بمعناه البسيط الذي يتناسب مع مرحلة نمو الطفل الثقافي) مركزا مرموقا في حياة الطفل الراهنة وفي حياته في المستقبل وحياة المجتمع بعد ذلك وعلى اساسه والخيال التكنولوجي هذا يعبر عن نفسه لدى الاطفال منذ سن مبكرة في العابهم (في مرحلة الروضة) وفي المنزل ايضا: وذلك في تحليل الادوات والاجهزة التكنولوجية البسيطة وفي تركيبها فلابد من توجيههم باستمرار تفاديا لتكسير تلك الادوات والاجهزة او تعطيلها اثناء عملية الفحص او التمحيص (التحليل والتركيب) ومن هذه الزاوية يكتسب اشراف الكبار على النشاط التكنولوجي للاطفال اثناء تعاملهم مع الادوات والاجهزة التكنولوجية وبخاصة المعقدة منها بالقياس بمستوى نضجهم الثقافي) اهمية تربوية كبيرة بالاضافة بالطبع الى ادامة لتلك الادوات والاجهزة التكنولوجية والمحافظة عليها واتقان فن استخدامها بكفاية.

ويفضل بنظرنا تشجيع الالعاب التكنولوجية الجماعية التي يساهم فيها اكثر من طفل وان يعود الأطفال على انجاز اعمال مفيدة على القدر المستطاع وان تشجع هواياتهم التكنولوجية وينمى خيالهم التكنولوجي بصورة عديمة الانقطاع.

ولتحقيق ذلك على افضل وجه لابد من ان يقوم المشرفون على تربية الاطفال في الاسرة والمدرسة وعن طريق اجهزة الثقافة والاعلام بتوضيح تركيب تلك الادوات والاجهزة وكيفية تفكيكيها واعادة تركيبها وان يشرحوا ذلك شرحا وافيا (من وجهة نظر الطفل) مقرونا بالافعال لا بمجرد الاقوال.

كل ذلك يستلزم ان يلم المشرفون على تربية الاطفال في الاسرة والمدرسة وفي اجهزة الاعلام الماما كافيا بخصائص الاطفال الفسلجية والسايكولوجية في كل مرحلة من مراحل نموهم. (وقد تحدثنا عن ذلك بالتفصيل في كتابنا اراء حديثة في تفسير طبيعة الطفل وفي تربيته) شريطة ان ياخذ بعين الاعتبار دائما وابدا ان الاطفال يختلفون فيما بينهم اختلافات كبيرة وكثيرة حتى في مرحلة النمو الواحدة وان الطفل نفسه يختلف في كل مرحلة من مراحل نموه رغم وجود جوانب مشتركة كبيرة فلابد

من مراعاة ذلك.

اثبتت الدراسات السايكولوجية المعاصرة المستندة الى علوم الدماغ ان الاطفال تتغلب عندهم بافراط الجوانب الانفعالية فلابد من استثمار ذلك الى حده الاقصى وعلى افضل وجه لتنمية خيالهم - العلمي والادبي - بالتعاون مع ادب قصص الخيال العلمي. وخيال الطفل يجسد نفسه في سن مبكرة عن طريق القدرة على تكوين علاقات او ارتباطات ذهنية جديدة (غير مألوفة: غريبة من وجهة نظر الكبار) بين الاشياء والظواهر المألوفة: اي ان بمستطاع الطفل ان يوجد صورا ذهنية خيالية مختلفة وانطباعات عن اشياء مادية متباعدة ومبعثرة وخيال الاطفال يبدأ ساذجاً بسيطا وطريفاً ثم يأخذ بالتعقيد شيئا فشيئاً وبالارتفاع عن الواقع المحسوس وبالاختلاف عنه وعبر سلسلة من المراحل التحولية حتى يبلغ اعلى مراتبه عند النضج.

وهذا يعني ان خيال الطفل يخضع لعملية نمو وتطور بفعل عملية النمو (والتطور) التي يمر بها الطفل جسميا وعقليا ومن الناحية الانفعالية وتلعب اللغة دورا اساسيا في تنمية الخيال وتطويره عند الطفل منذ بداية تعلمه اياها في سن مكبرة في الحديث اولا ثم في الكتابة والقراءة بعد

ذلك وعلى اساسه وبخاصة لغة المجاز: الاستعارة: الكناية وما يجري مجراهما.

فلابد والحالة هذه من تنمية خياله الادبي وفي مجال التكنولوجيا بصورة خاصة وذلك بتوفر المستلزمات الثقافية والمادية (الكتب المجلات الاجهزة التكنولوجية) والمشرفين في المنزل والمدرسة وفي اجهزة الاعلام.

كلمة ختامية

يعبر خيال الطفل عن نفسه منذ سن مبكرة باستخدام الطفل الاشياء المادية المالوفة كالادوات المنزلية مثلا باشكال غير مألوفة احيانا – بنظر الكبار – اي انه يحاول – عن طريق اللعب – استخدام بعض الادوات لتؤدي وظائف جديدة (او غريبة) تختلف عن وظائفها الاصلية بنظر الكبار – وتحقيق اغراض جديدة غير مألوفة بنظر الكبار. وهذا يعني – بعبارة اخرى ان الاطفال ينظرون الى الاشياء المادية اثناء اللعب بالدرجة الاولى والاهم وإلى علاقاتها المالوفة ايضا ووظائفها في ضوء تربينة جديدة يبتكرونها (غريبة من وجهة نظر الكبار) وربما تافهة او مضحكة وقد تكون ضارة بالادوات المستخدمة في غير مواقعها الصحيحة.

وهذا كله واضح في العاب الاطفال بالدرجة الاولى والاهم كما انه واضح ايضا في رسومهم وفي اسئلتهم وفي القصص التي يروونها للكبار وفي تعليلاتهم للظواهر الطبيعية والاجتماعية من ناحية العلاقات بين الاسباب ونتائجها. والتعليلات الغريبة والمضحكة التي يبتدعها الاطفال

في سن مبكرة للعلاقات بين الاسباب والنتائج ناجمة في الاصل - على مانرى عن ضعف مستوى نضجهم الثقافي ووجود فجوة فكرية عميقة الغور واسعة المدى بين معرفتهم وبين معرفة الكبار المحيطين بهم وبخاصة المتعلمون منهم الامر الذي يضطر الاطفال في كثير من الاحيان - على ملء تلك الفجوة الفكرية (الثقافية) باخيلة وتعليلات بعيدة عن عالم الكبار وعن المعرفة السائدة.

فلابد - والحالة هذه من ان يفتح الكبار جميع منافذ الخيال عند الطفل وذلك بتهيئة الظروف الايجابية الملائمة لتحقيقه على افضل وجه مع التشجيع والتوجيه والمشاركة العاطفية والاشارة بجهود الاطفال الفكرية مهما كانت متواضعة وغير معقولة بنظرهم الأمر الذي يحفزهم على بذل مزيد من الجهد الفكري ويساعد على توسيع مداركهم الثقافية وتطوير قدراتهم الابداعية وزيادة ثروتهم اللغوية ويعودهم على الجرأة الادبية والطلاقة في التعبير عن مكنونات خيالهم الممتع في هذا السن المبكرة من حياتهم. وهذا يعني - بتعبير اخر تشجيع مبادرات الاطفال وتوجيهها واثرائها وتطويرها بجميع الوسائل الايجابية المتاحة وفي جميع المناسبات .

ولابد من التنبيه هنا الى ان في ادب قصص الخيال العلمي للكاتب الفرنسي فيرن - التي سيأتي ذكرها بعد قليل. وفي ثنايا كتاب ألف ليلة وليلة قضايا خيالية ذات قيمة تربوية كبيرة من ناحية تنمية الخيال العلمي عند الاطفال وبخاصة في موضوع التحليق في الفضاء الكوني المثير والممتع.

اهم المراجع

اولا باللغة العربية

١ : الدكتور نوري جعفر: جذور الابداع لدى جميع الناس / الموسوعة الصغيرة ١٩٨٥

٢ - الدكتور نوري جعفر: مع الحريري في مقاماته / الموسوعة الصغيرة / ١٩٨٥

٣ - الدكتور نوري جعفر: الابداع واليات الدماغ منشورات جامعة بغداد.

٤ : الدكتور نوري جعفر: الاصالة في شعر ابي الطيب المتنبي / ١٩٧٥

٥: الدكتور نوري جعفر: الاصالة في العلم والفن وزارة الاعلام ١٩٧٩

ثانيا: بالانكليزية:

1: H. G. Wells: War of The Walds

2: H. G. wells: Time Machine

3:Brod husy, fahrenheit: 451

4: Clarke: The sands of Mars.

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد

٣١٠ لسنة ١٩٨٧

مطبعة سومر هاتف ٧١٩٩٧٤٣

السعر ٢٥٠ فلساً